جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بدسوق

مجلة الدراية
https://drya.journals.ekb.eg

مجلة الدراية
مجلة علمية محكمة ربع سنوية

العدد الثامن والعشرون [يوليو ٢٠٢٥م]

المعادل الموضوعي في شعر محمد السيد شحاته

(شاعر البراري ١٩٠١م - ١٩٦٣م) دراسة تحليلية

الدكتور

أحمد محمد عبد المجيد سعداوي

مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدسوق

المعادل الموضوعي في شعر محمد السيد شحاته
(شاعر البراري ١٩٠١م - ١٩٦٣م) دراسة تحليلية

أحمد محمد عبد المجيد سعداوي.
قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: ahmedseadawy.2230@azhar.edu.eg

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مدى فاعلية المُعادِل الموضوعي في تشكيل رؤية الشاعر (محمد السيد شحاته) في بعض تجاربه الشعرية من خلال تحليلها في إطار يعكس جماليات المعادل الموضوعي كمحور في تشكيل القصيدة، وعلاقته بالموضوع الأصلي، وأثر ذلك على الجانب الدلالي والجمالي للقصيدة .

ولم يكن المعادل الموضوعي ليسمو بهذه التجارب إلا بسمو وسائل تشكيل التجربة الشعرية، فاتسعت دائرة الضوء لتحيط بمدى دقة اختيار الشاعر للفظة، وملاءمة التراكيب للمعنى، وتواؤم الصور البيانية والرمزية، وسلامة البحور العروضية في ظلال الفكرة الرئيسة في إطار متماسك متعاون في سبيل تواصل التجربة الشعرية مع فكر القارئ ووجدانه وتفاعله معها.

وقد خلصت تلك الدراسة إلى تميز هذه التجارب إثر المعادل الموضوعي؛ ووضوح مدى فاعليته من خلال تقديم أفكارها المجردة ومشاعرها الداخلية في صور حسية خارجية تساعد القارئ على معايشة الحالة الشعورية التي يعيشها الشاعر ومشاركة أفكاره، بالإضافة إلى منحه القصيدة حسن التماسك، وعمق الصورة، وطواعية المعاني باتساع دلالتها التي لا تقف عند حدود ألفاظها الظاهرة؛ مما يفتح آفاق النقد الأدبي من خلال توسيع أدواته النقدية والانتباه للوسائل الأسلوبية الحديثة التي تضيف إلى التجربة الشعرية إبداعا وعمقا وإمتاعا.

الكلمات المفتاحية: محمد السيد شحاتة، شاعر البراري، المعادل الموضوعي، الأساليب غير المباشرة، الشعر المعاصر، الدراسات الأسلوبية.

Thematic Equivalent in the Poetry of Muhammad al-Sayyid Shahata (Poet of the Prairies 1901-1963): An Analytical Study

Ahmed Mohamed Abdel Majeed Saadawy.
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys, Desouk, Al-Azhar University, Egypt.
Email: ahmedseadawy.2230@azhar.edu.eg

Abstract:

This study aims to shed light on the effectiveness of the objective equivalent in shaping the vision of the poet (Mohamed El-Sayed Shehata) in some of his poetic experiences by analyzing it within a framework that reflects the aesthetics of the objective equivalent as an axis in shaping the poem, its relationship to the original subject, and the effect of that on the semantic and aesthetic side of the poem.

The objective equivalent could not have elevated these experiences except by the elevation of the means of shaping the poetic experience. The circle of light expanded to encompass the extent of the poet's precision in choosing the word, the suitability of the structures to the meaning, the harmony of the rhetorical and symbolic images, and the soundness of the metrical meters in the shadows of the main idea within a cohesive, cooperative framework for the sake of the poetic experience's continuity with the reader's thought and conscience and his interaction with it.

This study concluded with the distribution of this objective equivalent electricity; and the clarity of its effectiveness through presenting its abstract ideas and its inner poet in external sensory images that help the reader to experience the emotional state that the poet is experiencing and share his thoughts, in addition to granting him good prayer and depth of image, the flexibility of meanings with their broad connotations that are not limited to their apparent words, which opens up horizons for literary criticism by expanding its critical tools and paying attention to modern stylistic means that add creativity, depth, and enjoyment to the poetic experience.

Keywords: Mohamed El Sayed Shehata, Poet of the Prairies, Thematic Equivalent , Indirect Methods, Contemporary Poetry, Stylistic Studies.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على الهادي البشير النذير، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

أمّا بعد

فلقد أصبح الأدب المعاصر أكثر اهتماما بأساليب التعبير غير المباشرة؛ لقدرتها على الإثارة والتشويق لجذبها ذهن المتلقي، ودورها في توليد معان جديدة كلما أعمل فيها فكره، إضافة إلى أنها تمنح النص حياة ممتدة بامتداد قدرتها على العطاء والاستنطاق؛ مما يوسع دائرة تأثيراتها في المخاطب عبر المواقف المتباينة والأزمان المتغايرة؛ فتتعمق أفكارها، وتتكاثف مشاعرها، وتتضاعف جمالياتها؛ وهذا هو ما يتوافر في "المعادل الموضوعي" الذي يمنح الموضوع الشعري إبداعا وسموا، وسعة وعمقا، من خلال إيجاد معادل موضوعي لفكرته وإحساسه المجردين؛ فينقلهما في صورة خارجية حسية تزيد تجربة الشاعر بهاء وإبداعا وبلاغة وبيانا، وإيحاءات ورمزية قابلة للتطويع بقدر معانيها التي يصعب حصرها بعدما تخلصت من التقريرية والمباشرة؛ ولكن ليس ذلك متاحا لكل أديب، بل للمتمكن من موهبته، المحيط بلغته، المطلع على تراثه، المعايش لعصره، الممتد في ثقافته بامتداد عالمه وفنه، وهذا ما لمسته في شاعر البراري (محمد السيد شحاته)؛ مما حفزني أن أجمع بين المعادل الموضوعي كأسلوب يترأس أساليب التعبير غير المباشرة، وبين شاعر أريب (شاعر البراري) في بحث يحمل عنوان (المعادل الموضوعي في شعر محمد السيد شحاته – شاعر البراري–دراسة تحليلية)

واستدعت طبيعة هذا البحث أن يتألف من مقدمة أوضحت فيها أهمية وقيمة هذا اللون من الأبحاث الأدبية، وسبب اختياري لهذا الموضوع، والمنهج الأدبي الذي اتبعته فيه، وتلا المقدمة تمهيد عالجت من خلاله أمرين، أولهما:

ترجمت فيه لحياة شاعر البراري، وأبرزت بإيجاز نشأته، وتعليمه، ووظائفه، وأسباب نبوغ موهبته الشعرية، وعوامل إيثاره للمعادل الموضوعي في طرح شتى تجاربه، وماهية المعادل الموضوعي، وأتبعت ذلك بثلاثة مباحث: جاء المبحث الأول بعنوان **(المُعادل الديني)** الذي يعتني بدراسة نماذج من التجارب الشعرية التي طرحها شاعر البراري في ثياب المُعادل الديني، واستنطاق مدلولاتها، وإبراز جمالياتها، يليه المبحث الثاني المعنون بـ**(مُعادل من الطبيعة)** المخصص لدراسة عدد من تجارب شاعر البراري التي عرضها بواسطة المُعادِلات المستعارة من الطبيعة، وبيان علاقاتها بالحالة النفسية للشاعر، وجاء المبحث الثالث بعنوان: **(مُعادِلات أخرى)**، وقد خُصص لدراسة نماذج شعرية تنوع فيها المعادل الموضوعي غير ما سبق، ثم أعقبت ذلك كله بـ**(خاتمة)** عرضت فيها أهم النتائج والتوصيات، ووليها **(فهرس المصادر والمراجع)**.

واعتمدت في إعداد هذا البحث على **المنهج الوصفي**؛ لتميزه بالشمولية والتكاملية؛ حيث يجمع بين التفسير والتحليل والاستقصاء حتى الوصول إلى نتائج صحيحة؛ استجابة لطبيعة المُعادل الموضوعي الذي يقوم على الإيحاء والرمز؛ فيحتاج إلى التحليل وفك التراكيب وإمعان النظر والتأمل؛ للوقوف على أبعاد المعاني القريبة والبعيدة؛ للربط بين المعنى الظاهر وبين ما يريده الشاعر؛ ليتجلى جمال التعبير، ومصادر الجمال فيه، وتحديد الأسباب التي تثير فينا ذلك الشعور.

وإني لأرجو أن أكون بعملي هذا قد أضأت جانبا من جوانب الإبداع عند أحد شعراء العصر الحديث، وبالله استعنت وهو ولي التوفيق.

التمهيد

أولا: التعريف بالشاعر

الشاعر محمد السيد علي شحاتة، اشتهر بـ(شاعر البراري)؛ نظرا لنشأته في بيئة ريفية تميزت بالعديد من مظاهر الطبيعية التي ظهر أثرها في تشكيل اتجاهاته الشعرية إلى حدٍ كبير؛ حتى أصبحت الطبيعة محورا لغالبية أشعاره؛ حيث ولد في قرية (الجرايدة)، مدينة (بيلا)، محافظة (كفرالشيخ) عام ١٩٠١م، وقد ساعد على نبوغ موهبته الشعرية؛ حفظه القرآن الكريم في سن مبكرة، وإتمام دراسته في مدرسة المعلمين الأولية، وحصوله على شهادة الكفاءة للتعليم الأولي عام ١٩٢٢م؛ فعُين مدرسا، ثم عمل بدار الكتب بطنطا حتى سن المعاش، ومات عام ١٩٦٣م[١]، تاركا إرثا مميزا من الأشعار الثرية[٢] بالتصوير المتعمق في مظاهر الطبيعة الريفية المنبثق منها تجسيد حالته الوجدانية، وتشريح الواقع ونقد المجتمع؛ بما يدل على اتصال الشاعر بقضايا مجتمعه، وحرصه على إصلاحه.

وقد لوحظ اعتماد شاعر البراري على المعادل الموضوعي في تشكيل شتى تجاربه؛ ليهرب من التقريرية والمباشرة إلى الإيحاء والرمزية؛ لأسباب عديدة منها: ثقافته الواسعة، وموهبته الفذة، وقبلهما حادثة سِجن والده في

(١) ينظر : رسالة ماجستير بعنوان: مظاهر الطبيعة في شعر محمد السيد شحاته(شاعر البراري) دراسة تحليلية نقدية – للباحث / غانم عبدالنبي غانم، صـ ١٥: ٢٥– جامعة الأزهر الشريف، ٢٠١٩م.

(٢) جُمع نتاج الشاعر في مجلدين كبيرين ، الأول حمل عنوان: (الديوان الكبير لشاعر البراري محمد السيد شحاته)– جمع مادته الشعرية ابنة الشاعر (توبة محمد السيد شحاته)– أعده للنشر وقدم له الدكتور إسماعيل الصيفي– منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٦م، ويتكون هذا المجلد من ٦٣٦ صفحة. والثاني: حمل عنوان : مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري، جمع مادته الشعرية ابنة الشاعر (توبة محمد السيد شحاته)– تقديم وإعداد الأستاذ الدكتور /محمد مصطفى أبوشوارب– منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠١٣، ويتكون هذا المجلد من ٤١٦ صفحة.

قضية قتلٍ أدين فيها ظلما بسبب نفوذ عائلة القاتل الحقيقي الذين أوهموه بمقدورهم على إبرائه من تلك التهمة، بالإضافة إلى خوفه منهم على أفراد أسرته، وقد حُكِمَ على والد الشاعر بالسجن لمدة خمسة عشر عاما(١)، بدأت في مرحلة طفولة الشاعر التي كبرتْ وكَبُرَ معها آلامُه وأحزانه؛ فتمكن منه الإحساس بالظلم والقهر اللذين كان لهما بالغ الأثر في تجنب الشاعر للمباشرة والتقريرية في غالبية أشعاره.

المعادل الموضوعي

المعادل الموضوعي Objective Correlative): هو "مصطلح نقدي يشير إلى الأداة الرمزية التي يستخدمها النقاد والمبدعون للتعبير عن بعض المفاهيم المجردة، ويوظفها الشعراء لإبعاد ذواتهم وأحاسيسهم عن العمل الإبداعي"(٢).

وقد ارتبطت نشأة المعادل الموضوعي كمصطلح أدبي بكتابات الشاعر والناقد الإنجليزي(توماس ستيرنز إليوت) بشكلٍ كبير، الذي يقول: إن "الطريقة الوحيدة للتعبير عن العواطف بشكلٍ فني تكمن في إيجاد معادل موضوعي يكون هو الطريق الذي يحمل عاطفة الشاعر وأحاسيسه وينقلها إلى المتلقي للتأثير فيه"(٣)؛ حيث إن المعادل الموضوعي" يجعل انفعالا ذاتيا شيئا موضوعيا"(٤)؛ وهذا يعني أن قوة الانفعال في العمل الأدبي تستمد من قوة المعادل الموضوعي وتقاس به؛ وإن السبيل لنجاح العمل الفني يكاد

---

(١) ينظر : رسالة ماجستير بعنوان: مظاهر الطبيعة في شعر محمد السيد شحاته(شاعر البراري)دراسة تحليلية نقدية- للباحث / غانم عبدالنبي غانم- صـ ١٥: ٢٥.

(٢) المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو -أمريكي الجديد- دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات- أ. أحسن دواس- صـ٤٧- العدد سبتمبر ٢٠١٦- جامعة الأخوة منتوري قسنطينة ،الجزائر.

(٣) مقال بعنوان :(المعادل الموضوعي في مسرح شكسبير)، بقلم/ هبة الله إبراهيم محمد – نشر في العدد ١٩٨ إبريل ٢٠١٦ – مجلة تراث الإماراتية

(٤) معجم المصطلحات الأدبية – إبراهيم فتحي – صـ٣٣٥- التعاضدية العمالية للطباعة والنشر- صفاقس الجمهورية التونسية)-ط١-١٩٨٦م.

يقتصر على إيجاد معادل موضوعي ملائم لعواطفه بناء على رؤية(تي إس إليوت) للمعادل الموضوعي؛ لذا انتقد مسرحية هاملت؛ قائلا: " إنها فشل فني بالقطع"(١)؛ حيث" إن الانفعالات التي سيطرت على هاملت لا تبررها ما في المسرحية من وقائع"(٢)؛ لذا يرى (إليوت) "أن الحتمية الفنية تكمن في ملاءمة الجو الخارجي التامة للعاطفة، ووظيفة المعادل الموضوعي تكمن في التعبير عن عواطف الشخصيات عن طريق العرض أكثر من وصف المشاعر"(٣)، فاهتمام (إليوت) "لا ينصرف إلى الفكر والعاطفة لذاتهما بقدر ما ينصرف إلى المعادل العاطفي للفكر، أو النموذج الذي يصنعه الشاعر من عواطفه وأفكاره"(٤)؛ لذا يقول (فرانك ليفر) -فيما معناه-: في القصيدة يوجد معناها لا في بطن الشاعر، ولا في ذهن الناقد، والقيمة الشعرية لا تكمن فيما تقوله القصيدة وإنما فيما تكونه... ، وبذلك فلابد للنص الشعري أن يحدث تأثيرا في الجمهور، وأن يهز المشاعر ويزكيها ويلامس الوجدان، ويداعبه، وأن يقع ذلك التأثير موقع البلسم من الجرح وموقع النوتة من الإيقاع ، فإن الكاتب المبدع قد كان ناجحا في إيجاد المعادل الموضوعي الأمثل والأنجح للتعبير عن تلك المشاعر، فإذا فشل في إيجاد هذا المعادل وتوظيفه توظيفا فنيا رائعا؛ إما أن تحدث القطيعة النهائية بين النص والمتلقي ويستغلق على الجمهور الانفعال والتجاوب والتأثير والدهشة، وإما أن يحدث شرحا جزئيا يؤدي إلى الانفعال الخاطئ فتنتج مشاعر النفور بدلا من المشاركة الوجدانية، وأحاسيس الغضب بدلا من الطمأنينة، وفي

(١) بحث بعنوان:(مصطلح المعادل الموضوعي ، قراءة ثانية)- أ.د/ فتحي (محمد رفيق)أبو مراد، أ.د/ناصر حسن عيد يعقوب- صـ ٣٢٦- مجلة جامعة الوصل (الإمارات)- العدد الثاني والستين، يونيو ٢٠٢١م.

(٢) معجم المصطلحات الأدبية- إبراهيم فتحي - صـ٣٣٥- التعاضدية العمالية للطباعة والنشر- صفاقس الجمهورية التونسية)-ط١-١٩٨٦م.

(٣) بحث بعنوان:(مصطلح المعادل الموضوعي ، قراءة ثانية)- أ.د/ فتحي (محمد رفيق)أبو مراد، أ.د/ناصر حسن عيد يعقوب- صـ ٣٢٧.

(٤) ت. س إليوت الشاعر الناقد - ماثيشن - ترجمة/ إحسان عباس- صـ ١٣٠- بيروت - ط١- ١٩٦٥.

الحالتين يفشل العمل الإبداعي فشلا ذريعا من الناحية الفنية والجمالية[١].

فالمعادل الموضوعي يعني نجاح الشاعر في إيجاد وعاء خارجي يجسد مكوناته الداخلية لدى القارئ دون انتقاص شيء من فكرته وشعوره المجردين؛ فيعيش القارئ في أجواء الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر؛ "ومن هنا فإن وجود بعض المواضيع الخارجية المحددة سلفاً لتتواصل مع فكرة موجودة مسبقاً في قوتها الحية ضروري لتطوير هذه الفكرة وتوليد العاطفة المطلوبة"[٢]؛ حيث إن العلاقة بين الموضوع الأصلي والمعادل الموضوعي متلازمة ومتوازية من حيث الفكرة والعاطفة؛ لكن الاختلاف من حيث التجريد والتجسيم، والصورة المعنوية والحسية، والداخلية والخارجية؛ لذا يصنف المعادل الموضوعي على أنه أسلوب، ويشترط وجوده خارجيا قبل مولد تجربة الشاعر، ويحظى بالذيوع والحضور لدى الجماهير ما يجعل دلالته على فكرة الشاعر وتبليغ شعوره إلى المتلقي أكثر بلاغة وأبقى أثرا؛ ومن ثمّ تتضح إبداعية الكاتب في اختياره للمعادل الموضوعي الذي يعادل فكرته وشعوره في كل أبعادهما؛ "فالمعادل الموضوعي وسيلة المبدع لتوصيل رسالته".[٣]

والمعادل الموضوعي بصورته الشعرية قبل أن يعرف كمصطلح أدبي هو" موجود في أدبنا العربي على مر العصور من الجاهلية حتى العصر الحديث، وقد استخدمه الشعراء في التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم الذاتية التي يريدون إخفاءها وعدم الظهور بشخوصهم أمام الجمهور خشية المساءلة أو العقاب أو عدم القدرة على التعبير المباشر الصريح عن

---

(١) ينظر: بحث بعنوان : (المعادل الموضوعي في شعرنا العربي بين الإبداع والتقليد)- د. حمدي فاروق صالح الشيخ-المجلة العلمية لكلية التربية النوعية جامعة المنوفية -صـ ٤ -عدد عام ٢٠٢١م- الجزء الأول.

(٢) "محاضرات في الفن". غوتتبرغ دوت أورغ - صـ٤٦ - ترجمة ونشر موقع (واي باك مشين) منشور بتاريخ ٢٤ سبتمبر ٢٠١٥.

(٣) بحث بعنوان: (المعادل الموضوعي، مفاهيم وتطبيق)، سميرة عمار الرباعي- حولية كلية الآداب الجميل، جامعة صبراتة، ليبيا- صـ٢٥٥- العدد التاسع يوليو ٢٠٢٠م.

معاناتهم ومشكلاتهم إلا من خلال معادل موضوعي يصور مشاعرهم وآلامهم"[١]، فإن "الشعر العربي القديم قد اهتدى في كثير من الشعر إلى هذه الإيحائية في صورتها الساذجة الأولى دون أن يرشدهم النقد إليها، وبها خفَّ الطابع الذاتي المباشر"[٢] .

وبعد الاطلاع على حياة شاعرنا، والإحاطة بماهية المعادل الموضوعي؛ تتكشف أسباب أخرى للجوء شاعر البراري إلى معادل خارجي في تشكيل شتى تجاربه الشعرية؛ حتى يمنحه القدرة على صياغة تجربته بالصورة التي تذكيها وتجسدها فكرا وشعورا؛ فتحيط بما في أعماق نفسه بعدما وضعها في قالب يجنبه المواجهة أو الخوف أو الخجل؛ فمنح التجربة رحابة واسعة تحفزه على الغوص نحو أعماق وجدانه، والبوح بكل ما يشغل فكره من خلال معادل يستتر خلفه لاسيما حين الحديث عن سجن والده والبوح بنكسة مشاعره التي يريد التخلص منها؛ فتحيا التجربة وتكتمل فكرا وشعورا لدى القارئ، وتتوه أسرار الشاعر الخاصة بما تحمله من أوجاع دامية له بعد مزجها بالفكرة العامة لهذا المعادل الخارجي وما يجسده من شعور ملازم له، ويقول (إليوت): " قدرة الشاعر على التعبير عن الحقيقة العامة من خلال تجربته الخاصة المركزة؛ بحيث يستجمع كل الخصائص المميزة لتجربته الشخصية، ويستخدمها في خلق رمز عام "[٣]، وهذا ما سوف يمثله الجانب التطبيقي في هذا البحث .

---

(١) بحث بعنوان: (المعادل الموضوعي في شعرنا العربي بين الإبداع والتقليد)- د. حمدي فاروق صالح الشيخ -صـ ٣.

(٢) قضايا معاصرة في الأدب والنقد - الدكتور محمد هلال غنيمي- صـ٦٠- دار نهضة مصر للطباعة والنشر-القاهرة .

(٣) مقال بعنوان: (ثقافة النقد الموضوعي) - بقلم /غسان كامل ونوس- صحيفة الثورة الإلكترونية- نشر بتاريخ ١٦ مارس ٢٠٢١م.

المبحث الأول : المعادل الديني

يقول إليوت: "وترى في الشعر ذهنا وصنعة ومجهودا أشبه بالمجهود الذي يتم في عالم المعمار، كما ترى فيه دلالات رمزية وأسطورية، واستقلالا ذاتيا"(١)، ولتحقيق المعادل الموضوعي وخلق رمز عام يضفي على التجربة الذاتية بظلال الموضوعية؛ يستدعي الشاعر –أحيانا– معادلا ذا صبغة دينية يطرح من خلاله موضوعه الأصلي بأسلوب غير مباشر؛ حتى يساهم هذا المعادل الديني في إضفاء القدسية أو المصداقية على تجربته الشعرية، بالإضافة إلى إمكانية بلورة فكرة الشاعر وعاطفته بصورة ملموسة موجزة، وخلق موضوع عام يتيح للشاعر الهروب من تداعيات سلبية ومشاعر قاسية قد تحملهما الذاتية والمباشرة حينئذ؛ لذا عمد شاعر البراري إلى المعادل الديني بشكل ملحوظ في صياغة تجاربه التي بصدد الحديث عن مأساة سجن والده، ومدى تأثيرها عليه في الناحيتين الاجتماعية والوجدانية، وقد جاءت قصة سيدنا (يوسف) أولى المعادلات الدينية استعمالا وتوظيفا في تشكيل تلك التجارب؛ لِما يرى الشاعر أن سجن أبيه لا يفترق عن سجن (يوسف)–عليه السلام– من حيث المؤامرة والقسرية والظلم البين في ظل بزوغ الدلائل على براءة كليهما وسمو أخلاقهما، فيقول في قصيدته(يوسف الصديق) مخاطبا سيدنا (يوسف) –عليه السلام–على (مجزوء الكامل):

أرأيْتَ لمّا أجمعُوا أنْ يسْجنُوك وأنت دائنْ؟!

ازدنتَ في الدنيا به والسجنُ للبراء زائـنْ(٢)

إن براءة (يوسف)–عليه السلام– هي أمر مشهود ومعلوم بنص قرآني لا يقبل التشكيك؛ فلا تحتاج إلى دفاع الشاعر لإثباتها؛ لكنه يرى هذه البراءة

(١) في نقد الشعر – د/ محمود الربيعي– صـ ١٥٩– دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة

(٢) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)– صـ ٣٥٨.

بكل تفاصيلها المادية والنفسية في حادثة سجن والده، فالشاعر إن كان يتحدث في الظاهر إلى (يوسف الصدّيق) عن دلائل براءته، لكنه في نفسه يقصد براءة أبيه؛ فيتحدث إليه مسليا له في سجنه، ومخاطبا كل فرد من أفراد مجتمعه يظن بأن السجن هو منقصة في المطلق؛ فإن براءة أبيه كانت ظاهرة للعيان، والأدلة عليها كانت كثيرة، منها أن أباه هو نفسه الشاهد على المدين بتلك الجريمة كما عبر بقوله: **(أرأيْتَ لمّا أجمعُوا أنْ يسْجنُوك وأنت دائنْ)** بأسلوب استفهام يحمل معنى التعجب بفعل الرؤية **(أرأيْتَ)**التي هي أقوى برهان على بزوغ هذه الحقيقة؛ مما يؤكد على صدق براءة والده، ويكثف شعور التعجب من سجنه؛ وفي هذه الحالة–السجن في ظل البراءة– يرى الشاعر أن السجن حينئذ هو كمال ورفعة تضاف إلى سجل المسجون، وليس كما يظن الجاهلون؛ ليحيل السجن من موضع ازدراء وعار إلى زينة وشرف، وإن يوسف –عليه السلام– خير شاهد على ذلك.

ويواصل الشاعر تسلية أبيه في سجنه والدفاع عنه بصورة غير مباشرة، ولعل أقرب تسلية لقلب السجين البريء هو إظهار الحق؛ لما فيه من البراءة في عيون الناس، ورفع الظلم عن نفسه التي طال أنينها من وحشة السجن في ظل تمتع الجاني بالحرية والانطلاق؛ ومن ثم يقول الشاعر في خطابه للصدِّيق:

أرأيْت لمّا صرّحَتْ لهمُ بأنَّك غيْر خائنْ؟!
تصريحها قد كان مفْـ ـتاحًا لأبواب الخزائن
ومن الدجى يأتي ضيا ء الصبح، والمقدور كائن[1]

إن الشاعر لما عادل في الأحداث الماضية بين مشهد سجن (يوسف)

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)– صـ ٣٥٨.

وحادثة سجن أبيه؛ بنى عليه القادم من أحداث –أيضا–؛ ظنا بأن القادم سوف يسير على خطى أحداث قصة (يوسف)–عليه السلام–؛ لشدة تيقنه من براءة أبيه وعلو منزلته في نفسه كقدسية النبي في نفس أتباعه؛ حيث يتنبأ الشاعر أن القادم سوف يكون مشابها في إظهار براءة أبيه كما اعترفت امرأة العزيز ببراءة (يوسف)–عليه السلام–، وقد رفعه هذا الاعتراف إلى أعلى منازل الأطهار الشرفاء؛ كما كان هذا الاعتراف مفتاحا لأبواب الخير والملك لـ(يوسف)–عليه السلام– بعد شدة العتمة وطول غمتها؛ تصديقا لقول الشاعر في نهاية هذا المقطع: **(ومن الدجى يأتي ضياء الصبح والمقدور كائن)**، وتلك هي المفارقة في أن يصير المسجون بسبب الخيانة أمينا على خزائن مصر؛ ويصير المدين دائنا، ولا شك في أن هذا المشهد لأبلغ مواساة لأبيه، ونشر الأمل في نفسه بل في نفس الشاعر الذي يتوق إلى هذه البراءة ويؤمن بها إيمانا راسخا، يدل عليه استفتاح هذا المقطع باستفهام يحمل معنى التعجب من الحدث واعتراف الجاني بالحقيقة؛ فتبدل الحال إلى النقيض **(أرأيْت لمّا صرّحتْ...)**.

ويكثف الشاعر من استدعاء الأحداث من قصة (يوسف)–عليه السلام– ليبرهن بها على مدى رفعة (يوسف) السجين بل رفعة أبيه، فيقول:

أرأيت لما أعلنوا لك بؤسهم ولهم دفائن؟
عرّفْت نفْسك غافرًا لهمُ، وذلك غير شائنْ
في هذْأة الّلُجّيِّ يا.. صدِّيقُ أمْنٌ للْسفائنْ[1]

يستدعي الشاعر آخر موقف لأخوة (يوسف)–عليه السلام– في مسيرة خداعهم لأخيهم التي استهلوها معه ببشاعة حيلتهم في التخلص منه، وقد

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)– صـ ٣٥٨.

صور القرآن هذا الموقف الأخير على لسانهم في قوله تعالى: **(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزْجَىٰةٖ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ)**[١].

وبعد كل هذا الكم من القسوة والكذب والتمثيل، يقابل (يوسف) كل هذا بمنتهى السماحة والمغفرة، **(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)**.[٢] وهذا-بدون شك- يرتقي بمقام(يوسف)-عليه السلام-، ويزيده نبلا وشرفا، ودليل على أنه يمتلك من مقومات الإنسانية والرحمة ما يعتلي به جنس البشر، ولا يمكن لصاحب هذا الخلق أن يُقْدِمَ على خيانة أو قتل على الرغم من سجنه ومعايشته للأشرار والظالمين؛ ومن ثمّ يختتم الشاعر هذا المقطع بخطاب يتوجه به إلى الصديق المراد نصيحته المنبثقة من الصّدِّيق المُعادل الذي غاب عن الدنيا وترك لنا ذكرى نعتبر بها في مثيلاتها، ونتسلى بها في أحزاننا، وتتلخص في الرضا والصبر على المقدور؛ ففيهما النجاة من كل المصائب(**في هذأة اللّجّيّ يا.. صدِّيقُ أمْنٌ للْسفائنْ**).

لا شك في أن (يوسف)-عليه السلام- قد سطر صفحات في الطهر والشرف وسمو الأخلاق، ومع كل هذه المكارم أفاض الله عليه بمكرمة خاصة تميزه عن بقية جنسه، يتعمد الشاعر ذكرها لغاية يوضحها، فيقول:

أرأيت عاقبة القميـ ص، وهل تتاح لغير صائن
تلك البصائرُ ملكُها يعْلو على ملكِ المدائن[٣]

يستدعي الشاعر مكرمة قميص (يوسف)-عليه السلام- الذي جعله

(١) سورة يوسف: الآية (٨٨).
(٢) سورة يوسف، الآية (٩٢)
(٣) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ ٣٥٨.

الله سببا في إرجاع بصر أبيه، وقد خلدها القرآن؛ تأكيدا على براءة(يوسف) وعلو مقامه؛ فقال تعالى: **(ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ)**[1] ، لاشك في أن هذه المكرمة لم يكن الله يمنحها لعبد عاص، ومن ثمّ فهي دليل قاطع على علو مقام يوسف –عليه السلام– عند ربه، وعلى براءته من كل نقيصة لاسيما من التهم التي يلفّقها ضعاف النفوس وعديمي الإيمان بالتشكيك من موقفه مع امرأة العزيز ؛ ومن ثمَّ يختم الشاعر قصيدته ببيت يوجز ما سبق، ويؤكد به فكرة هذه القصيدة التي نسجت من أحداث منتقاة بعناية من قصة (يوسف)– عليه السلام–، كلها تؤكد على أن السجين قد يمتلك من الأخلاق ما لم تتوفر في كثير من الطلقاء خارج السجون، ولا يمكن لغالبية الناس اللحاق بركابها؛ لذا عبر الشاعر عنها بلفظة **(البصائر)**؛ مشبها إياها بأنها تعلو فوق كل منازل الدنيا، وعلى رأسها ملك المدائن وحكمها.

فهذه القصيدة تجسد مدى إعزاز الشاعر وافتخاره بأبيه الذي سجن ظلما وقسرا، فقدم فكرته إلى المتلقي بصورة إيحائية رمزية من خلال معادل موضوعي ديني انتقاه الشاعر من خلال منظور ذاع صيته في هذا الموضوع؛ ليجعله شاهدا ودليلا قاطعا على صدق فكرته التي لو صرح بها وقصرها على والده لفقدت الأثر والتأثير، كما استطاع الشاعر بهذا المعادل الهروب من غصة المباشرة بالتغلب على المشاعر القاسية أو الأفكار المريبة، فكسى الفكرة بالعمومية التي تنفي عنها الشخصانية، وتعفي الشاعر من التساؤلات والشكوك من مرضى النفوس، لاشك في أن ذلك يشير إلى عبقرية الشاعر ؛ بأن جعل المخاطب يشاركه تجربته، ونقل ما يريد إيصاله

(١) سورة يوسف ، الآية (٩٣).

إليه بإيحاء ولطف وإقناع.

ويعاود الشاعر عرض قضية(سجن والده) متخذا سجن(يوسف) الصدّيق معادلا موضوعيا لموضوعه الأصلي في قصيدته (إلى صديق سجن بريئا)، محملا قصة (يوسف الصديق) عديدا من الرسائل والنصائح التي يريد إيصالها إلى صديقه الذي رمز به إلى والده -أيضا-؛ زيادة في الإيحائية والرمزية، لاسيما في هذا المقام الذي يقدّم فيه الشاعر النصح إلى والده السجين، فيقول على أصداء بحر **(البسيط التام)** :

وقاعةُ (السّجن) ما دامتْ بلا سببٍ فإنّها قاعةٌ فوْق السماواتِ
انظر إلى (يوسف الْصدِّيق) كيْف قضى في سجْنهِ بضْع[1] أعوامٍ طويلاتِ
هل ضرهُ سجْنهُ؟ هل حطّ قيمته؟ هل قابل السجن إلّا بابْتساماتِ[2]؟

إن من أكثر ما يشغل فِكْرَ السجين البريء بجانب الإحساس بتقييد حريته أو الحرمان منها، هو نظرةُ الآخرين له بالنقص والازدراء، وفوق هذا قسوة الإحساس الذي يراوده بأنه صار مصدر عار لأولاده وعموم أسرته؛ ومن ثمّ يعمد الشاعر إلى رفع هذه الهواجس عن كاهل والده، ويبدلها إلى النقيض تماما، مؤكدا له من خلال المعادل الموضوعي باستدعاء مشاهد لـ(يوسف) الصديق -عليه السلام-؛ حيث التشابه بينهما قائم، فكلاهما سجن بريئا، مستخدما كثيرا من وسائل التعبير التي تجعل من الأحداث البعيدة السماعية أحداثا قريبة مشاهدة من خلال الأساليب الإنشائية التي بدأها بفعل الأمر(**انظر**) الذي يحمِّله معنى التقرير بتقريب البعيد إلى واقع أمام عينيك تعايش أحداثه، ثم ينتقل الشاعر من الأمر المجازي إلى

(١) الصواب: (بضعة أعوام)، ولعل الوزن اضطر الشاعر إلى القول (بضع أعوام). ينظر : الديوان الكبير لشاعر البراري- صـ٨٩.

(٢) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ ٨٩.

الاستفهام المجازي الذي حَمّلَه معنى التعجب من طول مدة سجن يوسف في البداية؛ لذا عبر بالتنكير **(أعوامٍ طويلاتِ)**؛ للدلالة على امتداد زمن سجنه وهول مصابه؛ ليعقبها بالاستفهامات المتتالية المحملة معنى النفي:**(هل ضرهُ سجْنهُ؟ هل حطّ قيمته؟ هل قابل السجن إلّا بابْتساماتِ؟)**؛ لمشاركة المخَاطَب في هذا النفي؛ فيزيده تأكيدا ويقينا بأن هذا الأمر يسير؛ زيادة في إدخال الأمل في نفسه بنفسه، وتخليصها من المشاعر السلبية.

وبعدما بين الشاعر كيف قضى (يوسف)-عليه السلام- فترة سجنة الطويلة بمنتهى الارتياح والطمأنينة والرضا النفسي؛ انتقل إلى بيان مدى عاقبة السجن على مصير حياته بعدئذ، فيقول:

قدْ ضمّه السجن أعوامًا ليجعله على خزائن أرزاق البريات
وكم منافع في دنياك كامنة ينالها المرء من حمل المضرات[١]

إن من أقوى ألوان المواساة هو إقناع صاحب المصاب بأن مصيبته ستكون سبب فرحه وسعادته**(المفارقة)**، إنه الانتقال من أسفل سافلين إلى أعلى عليين؛ إن هذا هو ما فعله الشاعر في رفع الروح المعنوية لأبيه، فكان السجن بدون ذنب سببا في أن يصير (يوسف) أمينا على خزائن مصر، وخير شاهد على أن كثيرا مما هو ظاهره الشر؛ قد يحمل في باطنه كثيرا من الخيرات، وقد عبر الشاعر بـ**(كم)** الخبرية في قوله:**(وكم منافع في دنياك كامنة)**؛ للدلالة على الكثرة؛ ليوسع باب الفرح، فيتضاعف البِشر في نفس والده، وفي الختام يصرح الشاعر عن غايته من نظم قصيدته، فيقول:

لو كان في السجن للإنسان منقصة لم يحو يوما رجالات النبوات
فجمل النفس بالصبر الجميل وثق أن الشدائد أسباب السعادات[٢]

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته) صـ ٨٩.
(٢) السابق صـ ٨٩.

يختم الشاعر قصيدته بأسلوب شرط يفيد امتناع حدوث فعل الشرط **(لو كان في السجن للإنسان منقصة)** لعدم تحقق جواب الشرط**(لم يحو السجن يوما رجالات النبوات)**؛ فعمد الشاعر إلى بناء جملة الشرط بـ**(لو)**؛ لإبراز مدى الثقة التي يريد أن يبثها في نفس والده، وإنه ليفهم من تعبير الشاعر السابق معنى العموم ولو كان مقصده الاستثناء!؛ فالسجن منقصة وعار لكل ظالم، ولكن الشاعر بالغ في تعميم حُكمِه؛ لمضاعفة البِشارة في نفس والده، وهذه الروح كانت ظاهرة في كثرة التأكيدات في البيت الأخير الذي يُوجز فيه الشاعر كل ملامح فكرته الرئيسة، بأن الصبر هو مفتاح الفرج، وإن هذا الظلم سوف يكون سببا في حصول الكثير من السعادات، يقولها عن ثقة ويقين، وهذا من براعة الختام الذي يحسب للشاعر .

فاستطاع شاعر البراري من خلال هذا المعادل الموضوعي أن يقدم نصحه لأبيه بصورة غير مباشرة، لكنها أشد تأثيرا؛ بعدما منحها المصداقية والواقعية حينما أضفى عليها بظلال قرآنية وشخصية دينية منحت الواقعية لتلك الفكرة؛ فتبلورت في صورة خارجية لا ريب فيها، وفيها من الإثارة ما تجذب المتلقي إلى معايشة صدق التجربة ومشاركة حالة الشاعر النفسية بدون ذكر مأساة والده التي يخوضها بداخله .

والشاعر في قصيدته **(الخريدة)** يشتكي لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى، لكن الشاعر قصد من استدعائه -صلى الله عليه وسلم- أبعد مما هو ظاهر من تجربته؛ إنه ينعي أوصاف النبي في زمانه؛ إيحاءً إلى افتقاده لهذه الصفات فقدا تاما فيمن حوله؛ فيحيط القارئ بمدى مأساته وشدة مصابه، اللذين جعلا الحياة حملا ثقيلا على نفسه حتى كاد أن يفقد صوابه من شدة ما يقاسيه وسط أهوال المصائب المتلاحقة عليه؛ لذا عمد الشاعر إلى مخاطبة الرسول-صلى الله عليه وسلم- الذي يجد فيه كل ما يرجوه من قريب يعزو إليه شكواه، ويخفف

عنه بلواه، بل يزيل عنه بؤسه وشعوره الدامي بافتقاده العزيمة وروح الطمأنينة التي أمرنا بها خالقنا ومدبر أمورنا–جل في علاه–؛ لذا ينادي الشاعر النبي بهذه الصفات التي يفتقدها، فيقول في قصيدته على أوتار بحر(الكامل التام):

يا منهل الظمآن، بل يا مأمل الْـ لَهفان، بل يا موئل الحيرانِ

لك أشْتكي ممّا ألمّ، وهكذا يُشكى البلاء إلى الرؤوف الحاني[١]

ينادي الشاعر بنداء البعيد(يا) التي تفيد بعد المكان وعلو المنزلة، معددا نداءاته، مغايرا بين صفات المنادى، فاصلا بينها بـ(بل)؛ تجسيدا لحيرته، وشدة اضطراب نفسه التي تتعطش بلهفة لتلك الصفات اللازمة لإغاثتها من عميق حيرتها التي كادت أن تودي بها بعدما ضنت الحياة عليها بقلب رؤوف حنّان في ظل تلاحق الأزمات الدامية عليها؛ لذا يختم الشاعر البيتين بحكمة تلخص علاج حاله:**(يُشكى البلاء إلى الرؤوف الحاني)**؛ مما جعله يطلق صرخات الاستغاثة بنبيه–صلى الله عليه وسلم–، فيقول:

دهري تنكّر لي[٢] وأيّامي قستْ وزيادتي دومًا إلى نقصان

أبني كياني إثر بضع كوارث فتجد كارثة تهِدُّ كياني

لو كان هما واحدا لم أشكِهِ لكنْ أقاسي (ستةً) وأعاني[٣]

إنه يشير بأصابع الاتهام إلى أقداره التي يظن بأنها تسير في الاتجاه المعاكس وتجتمع لمعاداته[٤]؛ حتى كادت تُفقِدُه إيمانه؛ لذا لجأ الشاعر إلى

(١) مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)– صـ٣٥٤.

(٢) تنكر لي : أساء إلي. ينظر: معجم (لسان العرب) ، مادة (نكر).

(٣) مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)– صـ٣٥٤.

(٤) يؤخذ على الشاعر وعلى كل مسلم أن يعيب في الأقدار من خلال إبداء سخطه على الدهر؛ لقوله – صلى الله عليه وسلم: قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ؛ يقولُ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ! فلا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فإنِّي أنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ ونَهارَهُ، فإذا شِئْتُ قَبَضْتُهُما. رواه أبو هريرة – صحيح مسلم – حديث رقم ٢٢٤٦– (خلاصة حكم المحدث).

تصوير حدتها وشدة وقعها على نفسه من خلال المفارقة؛ حيث إن كل ما يتصل به وينسب إليه صار شرا، وما ظاهره الزيادة ينقصه ويسوؤه:

(دهري تنكّر لي وأيّامي قستْ وزيادتي دوما إلى نقصان)،

ومن خلال المقابلة-أيضا-؛ فكلما سعى نحو النجاح وبناء كيانه باء سعيه بالفشل والهدم:

(أبني كياني إثر بضع كوارث فتجد كارثة تهِدُّ كياني)؛

ومن ثمّ فإن واقع هذه الحياة التي عبر عنها الشاعر بالحال **(دومًا)**؛ يدفعه إلى اليأس وفقد الأمل.

واقع قاس لم ينتج عن مصاب واحد، بل عن ست، كل واحدة منها أعتى مما قبلها، يقول الشاعر معددا إياها:

بؤسي وتغريبي، وفقدُ أحبتي وضياع آمالي ويتم(عناني)[١]

(وأب بقاع السجن)أصبح هيكلا متصدعا من قسوة السجان[٢]

يعدد الشاعر مصائبه؛ وأشار إلى جميعها في إيجاز؛ لأنها مصائب قد مضت أحداثها، وبقيت مراراتها، لكنّ المصيبة الأخيرة وقف الشاعر عليها؛ يسترجع أحداثها، ويبكي على أطلالها، فيقول:

الله يعلم كيف(أجرم جرمه) ومضى (يصلي الصبح) في اطمئنان

أهلا وسهلا حين قالوا من جني؟ وأجابهم على الفور (إنّي الجاني)

ما حامت الشبهات فيها حوله فعلام لم يجنح إلى النكران

هل ظن أن الأمر أمرا هينا أم كان مشتاقا إلى (اللِّيمان)

---

(١) عنان(ابنة الشاعر) ماتت أمها وتركتها وليدة. بإثبات الياء، وهي على هذا النحو مضافة إلى ياء المتكلم للدلالة على اختصاصها به. مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ٣٥٤.

(٢) مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ٣٥٤.

ويلاه منه ، فقد مضى وأنا الذي ما لي على ميل الحمول يدان
حكموا عليه (بخمس عشرة حجة) قد تنتهي ويعود للأوطان[١]

إن إطالة حديثه عن سجن والده يوحي بشدة تأزمه من هذا الحدث في ظل حاجته إلى قلب محب يخفف همومه ويشاركه أحزانه؛ ولا أقرب من الأب حينئذ؛ واتكأ الشاعر على المفارقة في تعبيره؛ لإبراز مدى حسرته وشدة وقع هذه الحادثة على نفسه على امتداد حياته؛ فلقد صار الأب حملا ثقيلا فوق ما يحمل الشاعر من أسى وهموم؛ لذا تحس من دلالات كلماته إدانته لأبيه وعدم الرضا عن موقفه إثر هذه الحادثة وسلبيته حين توجيه الاتهام له؛ وهذا واضح من بداية قوله: **(أهلا وسهلا حين قالوا من جني؟)** **إلى قوله : (فقد مضى وأنا الذي ما لي على ميل الحمول يدان)**؛ وتلك هي المرة الوحيدة التي يعبر الشاعر عن مثل هذا الإحساس تجاه والده السجين؛ مما يعكس صراع نفسه وشدة اضطرابها تزامنا مع تعدد أزماته التي كادت أن تودي بصوابه؛ لذا ينتقل الشاعر إلى الحديث عن نفسه مخاطبا نبيه–صلى الله عليه وسلم–؛ حتى يزيح عنها تلك الأحاسيس الدامية والظنون المريبة؛ بل يتحصن بروح نبيه من وساوسه الشيطانية، فيقول:

أما أنا فالجسم حر مطلق والقلب في سجن من الأحزان
ناءٍ يراسلني (بطيف) إن يطف لم ينصرف إلا إذا أبكاني
أقريه من دمعي وفرط تفجعي وتوجعي مهما يكون مكاني
كهْلٌ ولكِنّ اعْترافًا هكذا لمْ ينْتظرْ حتّى من (الصّبيانِ)
سبب بسيط لا يبرر جرمه وإذا الجناية (سرها ربّاني)[٢]

مازال سجن الأب يسيطر على فكر الشاعر؛ فلما جاء يفضفض لنبيه–صلى الله عليه وسلم– عما ينتابه من حزن، استمد صوره من حال

(١) مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري–(محمد السيد شحاته) صـ٣٥٤.
(٢) السابق صـ٣٥٥.

سجن أبيه، فالجسم طليق حر في الظاهر؛ لكن قلبه سجين كوالده، سجين أفكاره البائسة وأحزانه المتراكمة التي لا تترك له مكانا ولا زمانا إلا لازمته لتجدد آلامه؛ حتى أصبح الدمع والتفجع لسان حاله، وصار يهذي بما لا يهذي به الأطفال، ويفعل ما لا يبرر فعله العقلاء، ويعلم الشاعر أن هذا قد يخرجه من دائرة المؤمنين التي لم يخرج عنها في جميع قصائده؛ لذا يختم قصيدته بالتوسل إلى نبيه بالشفاعة له عند ربه؛ لما أساء الظن بما يقدره له؛ عازما على عدم تكرار ذلك؛ والنبي ضامن له، قائلا:

فامدد يديك وناد(ربك) قائلا: هذا الفتي في حوزتي وضماني
وعليك صلى الله يا (مختار) ما صلوا عليك وراء كل أذان[1]

يكشف الشاعر في الختام عن سبب الشكوى إلى النبي وعدوله عن موضوعه الأصلي الذي يوشي بفقده الأمل في الحياة في ظل افتقاده لمن يخفف عنه قسوة ابتلاءاته المتلاحقة التي كونت لديه أفكارا مريبة جعلته يهذي كما يهذي المضطرب نفسيا؛ فاقدا لوعيه وناقما على حاله، لكنه سرعان ما يبدي ندمه، ويخشى من سخط ربه؛ لذا عبر بقوله مخاطبا نبيه(**ناد ربك**) بضمير المخاطب المفرد الذي يوحي بشعور الشاعر بالذنب والمعصية التي تبعده عن ربه؛ فاستطاع الشاعر أن يغوص في أعماق قلبه، ويعبر عن حقيقة شعوره، ويحيطنا بتمزقات نفسه بصورة كاملة الأبعاد، دقيقة التفاصيل، بأسلوب موجز مثير من خلال الشكوى إلى النبي؛ حتى يعينه على التثبت من إيمانه، والتقوي بروحه؛ والاستغاثة بشفاعته وجواره؛ لما تحمل نفس الشاعر من حب له وشدة تعلق به؛ فالنبي فيه الدواء لمثل هذه الروح البائسة، والمدد المغيث من أخطار التيه والحيرة، والتحوط من تسرب الإيمان من القلب؛ فخرجت الشكوى من القدر المعنوي في مشهد الشكوى إلى شخص النبي؛ فارتقت من النقص إلى الكمال، ومن القصور

(١) مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري-(محمد السيد شحاته) صـ٣٥٥.

إلى الإبداع، ومن النقد إلى الإعجاب، دون أن يقصر الشاعر في الإفضاء بكل ما في نفسه في مشهد حسي مألوف إلى نفس المسلم؛ فعايش القارئ تجربته بكل أبعادها الفكرية والوجدانية دون تأفف أو استهجان، وإن اندفاع الشاعر إلى بلورة هذه التجربة المثيرة، والإفضاء بتلك المشاعر المريبة؛ يفسره ما ذهب إليه (إليوت) بأن " الشعر ليس إطلاق المشاعر، بل هو هروب منها، كما أنه ليس تعبيرا عن الشخصية، بل هو تحرر منها... وإن أصحاب العواطف الخاصة والشخصية الخاصة هم وحدهم من يعرفون كيف يهربون منها"(١).

والشاعر في تجربته القصيرة جدا(**في مليحة**) أراد أن يوضح موقفه من الذين يلومونه في عشقه لامرأة لعوب؛ بأنه لا يمكنه التخلي عن حبها؛ لأنه متيم بعشقها إلى حد تجاوز كل حدود العقل والعرف؛ فيعدل عن الرد المباشر عليهم إلى غير المباشر من خلال استدعاء موقف سيدنا (يعقوب) من تحسس ابنه الصديق(يوسف)-عليهما السلام-، فيقول الشاعر على ألحان بحر (الكامل التام):

كفوا الملامة أو فلوموني كفى إني أحب الآن ظبيا أهيفا

لو شاهدتْهُ, عيْنُ يعْقوبٍ(٢) لَمَا قال"اذْهبوا فتحسَّسُوا منْ يوسفا"(٣)

يستهل الشاعر بيتيه باستواء الملامة من عدمها؛ فالحالتان سواء عنده؛ لأن ما أصابه أقوى من أن ترده الملامة عن عشقه لمحبوبته التي شبهها بظبي أهيف؛ للدلالة على جمالها الفائق الذي طال قوامها الممشوق الرشيق.

ثم يعدل الشاعر عن التصريح باستحالة العدول عن وصالها إلى

(١) مختارات من النقد الأدبي -رشاد رشدي- صـ ٥٣- مطبعة العلوم -مكتبة الأنجلو المصرية.

(٢) صرف الممنوع من الصرف للضرورة الشعرية.

(٣) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ ٧٧.

الحديث عن حال (يعقوب)-عليه السلام- الذي من شدة تعلقه بابنه (يوسف)-عليه السلام-؛ أوقف حياته على لقياه؛ لأنه يعلم أن لا علاج لعينيه وقلبه إلا بعودة (يوسف) إلى حضنه، وبهذا صار (يعقوب)-عليه السلام- المثل الأشهر على الإطلاق في شدة تمسكه بتحسس ابنه على امتداد عمره، على الرغم من أن مَن حوله سئموا من حديثه عن (يوسف)، واتهموه بالجنون والخرافة(**قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ**)[١])؛ ليجعل الشاعر من عشقه لمحبوبته أكسير الحياة له؛ بعدوله عن فكرته الأصلية إلى التأكيد على أن (يعقوب)-عليه السلام- لو رأى محبوبته ما احتاج لتحسس (يوسف)-عليه السلام-؛ ففيها العلاج لعينيه ولكل أوجاعه؛ مما حمل هذا المعادل الخارجي الرد البليغ للشاعر على من يلومونه باستحالة تخليه عن حبه لمحبوبته ولو تخلى (يعقوب) عن تحسس ابنه (يوسف)؛ فلا شك في أن هذا المعادل قد أوفى بما يصعب على اللغة بتعبيرها المعياري الوفاء به، سواء من حيث الإخبار بما في قلب الشاعر من آفاق حب لمحبوبته، أو من حيث هذه البلاغة التي توجت رد الشاعر على من يلومونه وشكلته في صورة فائقة الإبداع؛ فبلور المعادل الموضوعي فكرة الشاعر وأحاط المتلقي بعميق حبه في صورة بليغة موجزة شديدة التأثير والإبهار، فاستطاع الشاعر تجسيد عاطفته والخلوص بها من حيز النفس المجرد إلى حيز الوجود الخارجي الملموس من خلال معادل قادر على خلق حاله في نفس القارئ تشبه حالة الشاعر[٢].

(١) سورة يوسف ، الآية (٩٥).

(٢) ينظر: بحث بعنوان:(مصطلح المعادل الموضوعي ، قراءة ثانية)- أ.د/ فتحي (محمد رفيق)أبو مراد، أ.د/ناصر حسن عيد يعقوب- صـ ٣٢٧.

المبحث الثاني : مُعادل من الطبيعة

قد يعتمد الشاعر في تشكيل تجربته الشعرية على مُعادِل لموضوعه الأصلي مُعارا من الطبيعة؛ يبلور من خلاله فكرته الداخلية وانفعاله المُثار؛ لأنه يرفض التعبير المباشر عن موضوعه الأصلي لأسباب، يتضح أبرزها في الإجابة عن سؤال: لماذا آثر شاعر البراري في بعض تجاربه الهروب من واقعه إلى مظاهر الطبيعة وتعامله معها معاملة المتكلم العاقل؟! لأن العاقل الحقيقي هو سبب بؤس الشاعر وهروبه من عالمه الواقعي الذي تضيق به نفسه إلى عالم خيالي يرتاح له ويطمئن به وفيه، وهذه الحالة قد شاعت وانتشرت لدى شاعر البراري بسبب إحساسه بالظلم الذي نشأ فيه منذ واقعة سجن والده، ومعايشته لهذا الظلم حين يرى والده بين قضبان السجن، والجاني الحقيقي حرٌ طليق أمام عينيه طوال خمسة عشر عاما، هذا بالإضافة إلى تلك النظرات المريبة ممن حوله؛ إذ إنهم لا يعرفون عنه سوى ابن السجين القاتل.

وكان لهذا تأثيره على الشاعر؛ مما اضطره إلى اجتناب من حوله واللجوء إلى الطبيعة، فكانت خير أنيس له؛ ففيها يجد الصديق حين الحاجة إليه وإنشاده للأمل، واحتياجه إلى الفضفضة عن أسرار نفسه التي تؤنس روحه وتبعث الأمل داخله؛ ويأتي **(القمر)** على رأس هذه العناصر[١] كمعادل موضوعي لفكرته الرئيسة؛ قدم من خلاله عدة تجارب شعرية؛ لأن القمر يمثل أمرين مهمين في نظره، أولهما (الوحدة)، وثانيهما(الجمال)، وهما أبرز ما ينشدهما (شاعر البراري)، وخاصة حين آثر العزلة عن

(١) من قصائد الشاعر التي جاء القمر فيها معادلا موضوعيا لموضوعه الأصلي: قصيدة (القمر)، صـ ١٠٩- وقصيدة (القمر) صـ ٨٧، وقصيدة (إلى القمر)، صـ ٢٤٦- وقصيدة(إلى القمر) ، صـ ٢٨٧- وقصيدة(مناصب القمر) صـ ٣٨٨) وغيرهم. من الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته).

مجتمعه، وافتقد جمال النفس والروح فيمن حوله، ومن هذه التجارب، قصيدة(القمر)التي نظمها على أوزان بحر (الطويل)، يقول فيها:

حبيبٌ إلى عيني، حبيبٌ إلى صدْري أكاشفُهُ أمْري، وأودِعهُ سري
حبيبٌ لهُ سُهْدٌ كسُهْدِي، وأدْمُعٌ يعبّرُ عنْها النّاس بالأنْجم الزُّهرِ(١)

استهل الشاعر قصيدته بالتغزل في القمر كاشفا عن أسباب اختياره معادلا لموضوعه، مبينا مدى التقارب النفسي والتمازج الروحي بينهما إلى درجة الشعور بالاتحاد والمماثلة بينهما؛ من حيث طول السهر، ودوام الدموع التي استعار لها النجوم المحيطة بالقمر؛ وهذا يمثل حال الشاعر، وما تعانيه نفسه من وحدة؛ لذا آثر التعبير عنها بصورة القمر الفريد في شبهه.

ومن أسباب اختيار الشاعر هذا المعادل (القمر)-أيضا-؛ اتخاذه ساترا يكشف من خلفه حقيقة من يعاشرهم من البشر بصورة خالية من المواجهة والإدانة، فيقول:

حبيبٌ أمنْتُ الغدْرَ منْهُ, – وغيره تفنّن في التغرير وافْتنَّ في الغدرِ
وإن كان ذا صمتٍ فحسبي تمتعي بما فيه من سر وما فيه من سحرِ
وإن كان ذا بعدٍ وليس بسامعٍ ندائي، فكم قرب بأهل الهوى يزري(٢)

إن الشاعر يضع (القمر)الذي أمن غدره بصمته وبعده في مقابل بني جنسه من خلال(التشخيص)؛ فيثني على القمر في حسن عشرته، ونزاهة طباعه عن الغدر والحقد والحسد، بخلاف بني جنسه الذين لا يألون جهدا في الغدر والانتقاص من الغير ولو كان كاملا؛ فآثر الشاعر صحبة القمر على البشر وإن كان صامتا؛ لأن صمته حقيق على كتمانه لأسراره وشكواه، وعلى هدوئه الذي يبعث الراحة والارتياح في نفسه، وعلى الرغم من بُعدِ

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ ٢٧٤.
(٢) السابق صـ ٢٧٤.

القمر وعدم مبالاته بغيره؛ فهذا أجَلّ ما يجعله أفضل وأقرب إلى نفس الشاعر التي تأمن أذاه وفحشه بعدما صار الأقربون لا يرى منهم إلا الأسى، ولا يسمع منهم إلا الأذى؛ فلاشك في أن هذه الموازنة تكثف العاطفة، وتجلي الفكرة، وتبعث برسائل عدة إلى القارئ.

ومازال الشاعر يستغرق في الثناء على القمر موظفا ذلك في إبراز ما يجده فيه، ويفتقده فيمن حوله من بني جنسه، فيقول:

يهز شعوري عندما يصدع الدجى ضحوكا بلا ثغرٍ، صموتا بلا فكرِ
والله ما أبهى وأروع نورَهُ إذا بات منصبًّا على باسم النور
كأن هوى الزهراء تيّم قلبه فمدّ سناه يشتكيها إلى الزهر(١)

إن الشاعر يجد في القمر مصدر سعادته وصفاء باله، وسببا رئيسا في إدخال البهجة على نفسه؛ لأنه لا يعرف غير لغة الحب والجمال؛ حتى صار متيما برسم الجمال والبهجة على وجوه المخلوقات، يمدهم بسناه وبمحبته كحبيب تيم قلبه في عشق محبوبه؛ إشارة إلى أنه لا يحمل إلا الخير والمحبة لكل من حوله، في صورة يرجوها الشاعر في معاملة الآخرين له كما يعاملهم؛ ولكنها صورة فريدة كانفراد القمر في السماء.

ومع كل هذا الحب الذي يحمله قلب الشاعر وسمو أخلاقه وإيثاره العزلة، لم تسلم تلك الروح النقية من أذى البشر، فيقول:

يقولون: لا يدري بأنك صبُّه فقلت لهم: أهواه مع جهلهِ أمري
سواه قسا في حين يعلم أنني أضمّ ضلوعي في هواه على جمرِ
ومن كان يدري بالذي تحت أضلعي ويقسو، فخيرٌ منه من كان لا يدري(٢)

إن الشاعر يرى أن الناس هم مصدر الإيذاء له، وهم السبب في كل ما يعانيه من آلام نفسية، وفي عزلته التي يعيشها؛ لأنهم يقبحون كل

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ ٢٧٤.
(٢) السابقر– صـ ٢٧٤.

جميل، ويشوهون كل محب؛ فهم أسوأ ما ابتلي به في حياته، وصاروا مصدر تعاسته، ومعاناة نفسه، وتشويه روحه، بل كل مصيبة تصيبه؛ لذا لا بديل له إلا العيش في معية القمر والانعزال عن شرور البشر.

وبعدما توغل الشاعر في تشريح عالمه البشري الذي يعيش وسطه من خلال معادله (القمر)؛ يعتزم الشاعر عدم الالتفات إلى سوء بني جنسه وحملة التشويه التي تطارد بقية الجمال الذي تظفر بها نفسه، فيقول:

على ضوئه الشفّاف أنظم دمعي رثاءً لآمالي، وعتبًا على دهري
وفي ظله أكسو الطبيعة حلة وأضفي عليها من شعوري ومن شعري(١)

فالشاعر في نهاية قصيدته يكشف عن استبدال بني جنسه بعد أن ضاق صدره من سوء ضمائرهم التي قضت على كل آماله في هذه الحياة بالقمر؛ فهو خليله الذي يرى فيه كل ما يرتاح إليه، ويشعره بالدفء والمحبة، ويمده بما يعينه على السمو بشاعريته وشعره اللذين يتطلبان الجمال والعزلة؛ فيحلق بهما في عالمه المنسوج من حلى الطبيعة، بعيدا عن عالم البشر والشر؛ فيحافظ على جمال الروح والحياة.

وهذه القصيدة إذا كانت تحكي عن القمر ومناجاة الشاعر له وسعادته برؤيته، وارتياح نفسه في معيته؛ فهي تصور -أيضا- المفارقة الأخلاقية بين ما يتسم به الشاعر من براءة ومحبة، وما يتسم به أخلاق بنى جنسه من أدواء البغض والكراهية والأذى؛ مما كان سببا في حالة الاغتراب التي يعانيها الشاعر وسطهم، حتى آثر العيش وحيدا في عالمه المنسوج من خياله المطرز بصفاء قلبه وجمال روحه، فالشاعر إذن قد استطاع من خلال موضوعه المعادل أن يرسم كافة أبعاد موضوعه الأصلي من خلال بلورة فكرته وتجسيم شعوره بصورة مبدعة قادرة على إيصال كافة تفاصيلهما إلى المتلقي بأسلوب لطيف خال من المباشرة المورطة لصاحبها؛ إنه أراد أن

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ ٢٧٤.

يقول بأنه متمسك بروحه الطيبة وبقلبه المحب اللازمين لسمو شعوره وشاعريته على الرغم من كم هذه الوحشة والأذى المادي والنفسي الذي يلحقه من قبل الناس إذا ما اضطر إلى العيش وسطهم، وتلك الحالة يجسدها المعادل الجديد(القمر)، بما يمد به الآخرين بنور الأمل وسط الظلام الدامس؛ وبالخير والعطاء في ظل الجمود وتحجر القلوب، إنه العطاء الدائم دون المبالاة برد الفعل المعاكس للآخرين.

*وحين تنتاب الشاعر حالة اليأس والقبح، ومشاعر الكراهية والبؤس، تأتي صورة **(الليل)**[١] على رأس المُعادِلات التي تحملها أفكاره وشعوره؛ فصورة (الليل) هي المقابلة لصورة (القمر)عند شاعرنا، فالليل هو الذي يرى فيه تهدم الأحلام، وطمس كل جميل في هذه الحياة، والليل برموزه المتعددة من عدم وضوح الرؤيا، ومضاعفة الهموم والآلام، والسوداوية والضبابية، والشر والظلم، وغيرها من الصور التي يحمل أثرها عن الشاعر إلى نفس المتلقي بصورة مثيرة ومكثفة تعجز اللغة المباشرة التعبير عنها والإحاطة بها؛ وحينئذ تظهر أهمية المعادل الموضوعي الذي" يجب أن يوحي للذهن بشيء أكثر من الذي يقرره تقريرا مباشرا"[٢]، وهذا ما ظهر جليا في قصيدة (الليل)، يقول شاعر البراري على أوزان بحر (الخفيف التام):

أيها الليل أنت قلب يتيم نابض في شقائه أيَّ نبضِ[٣]

يكشف مطلع القصيدة عن أبعاد صورة الليل في ذهن الشاعر؛ حيث شبهه بقلب يتيم، فاقد للحنان والأمان، وحيد في مجابهة الأخطار والأحزان،

(١) من قصائد الشاعر التي جاء (الليل) فيها معادلا موضوعيا لموضوعه الأصلي: قصيدة (لجة الليل)، صـ ٢٤٧- وقصيدة (الليل) صـ٤٣٦. الديوان الكبير لشاعر البراري محمد السيد شحاته- منشورات ذات السلاسل بالكويت١٩٨٦م.

وقصيدة (في الليل)، مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاتة)- صـ ١١٠.

(٢) ت. س إليوت الشاعر الناقد – ماثيشن – ترجمة/ إحسان عباس- صـ ١٤٢.

(٣) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ ٢٨٩.

فهل يستطيع الصمود؟ هذا ما سوف يجيب عنه الشاعر في هذه القصيدة التي تتخذ من الليل شخصا عاقلا -من خلال أسلوب (التشخيص)-يفضي الشاعر من خلاله بحقيقة شعوره وبما تعانيه نفسه من ظلم البشر؛ فيحثه على البوح بما في نفسه للنجوم؛ فهي رفيقته دائما، فيقول:

نام عنْك الوجود ، إلّا نجومًا ساهراتٍ تصغى إليك، فأفضِ
أَفْضِ يا ليْل للنجوم بما في الـ أرض، واشرحْ جمودَ أهل الأرض[١]

ومع أن تعاطف النجوم مع (القمر)في القصيدة السابقة واضح؛ فقد تأثرت بما يحمله من محبة وأمل وسط شرور البشر؛ بمجيئها في هيئة دموع للقمر متناثرة لكثرتها، بخلاف صورتها هنا؛ التي جاءت ساكنة تصغي إلى الليل لا دور لها في مشاركته آهاته أو مواساته، بل مجرد رفيق له اضطر للفضفضة إليها في محاولة إفراغ ما يقاسيه من ظلم البشر الذي تجاوز المدى، فيقول:

اسأل المال: هل همو جمعوه من حلال، أم من حرام محضِ؟
واسأل البائس الفقير، أضاقت حوله الأرض، وهي ذات العرض؟
واسأل المثرِيَ البخيل بعفو الـ ـمال، ماذا يقول يوم العرض؟
ثمّ سلْه : أصان عرضا بمال؟ لا وربي، بل صان مالا بعرضِ
ظلموا أرْضًا تقلّهم[٢] فتمنّت لو قضاء السماء بالخسف يقضي[٣]

بدأ الشاعر المشهد بفعل أمر يحمل معنى التعجب من حال الليل المتوغل في سواده الداكن وظلمته الموحشة؛ لما يقاسيه من أحزان متراكمة تفقده متعة الحياة، وتجرده من جمالها شيئا فشيئا؛ لهول ما يراه من جمود

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- صـ ٢٨٩.
(٢) هذا الجزء من البيت مكسور الوزن لا يوزن على (مستفع لن)أو على (متفع لن).
(٣) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ ٢٨٩.

قلوب أهل الأرض، وما يقترفونه من آثام يعجز التعبير بأسلوب الخبر عنها؛ لذا يلوذ الشاعر بأسلوب الاستفهام الذي لا يكفي واحد ليحيطنا بأبعاد ما تحمله نفسه من انفعالات؛ فتتالت استفهامات مجازية تحمل صرخات من أهوال القهر والظلم والجهل الملازمة لأحوال أهل الأرض الذين يجمعون بين الشيء وضده في مفارقات تضيف إلى التعجب عجبا وعجبا؛ فإن أهل الأرض يعيشون من أجل المال وجمعه فحسب دون مراعاة لحله، على الرغم من أنهم تاركوه؛ فترتب عليه أن الفقير تضيق به الأرض مع رحابتها، والغني أصبح من تقتيره لا ينفق من ماله على نفسه، ولا يؤدي زكاته؛ لأن المسيطر على فكره وحياته: كيف يزيد ماله ولو كلفه ذلك التخلي عن عرضه ودينه؟! لقد صار هذا الواقع المزري هو حال أهل الأرض جميعا – إلا من رحم ربي–؛ فلم تعد الأرض قادرة على تحمل أوزارهم وأدواءهم والصبر عليهم؛ مؤكدا لو نطقت لتمنت من رب السماء زوالهم وطلب الإذن بخسفهم؛ لتتخلص من ظلمهم وما يقترفونه من جرائم عليها.

لذا يطلب الشاعر من الليل في الأبيات التالية بفعل أمر يحمل معنى التحضيض من خلال الإلحاح بتكرار فعل الأمر **(مر)** ثلاث مرات؛ حتى يرفع ظلم أهل الأرض عن كاهله، ويرحم نفسه من الأحزان المتلاحقة، فيقول:

فمرِ البدْرَ أيها الليل يثْني عن صخور الورى سناه الفضي
ومر الأفق أن يظل حزينًا ومر الأنجم المطلة تغضي[1]

يلح الشاعر على الليل أن يأمر كل مصدر نور، وأن يحث كل باقة أمل يصاحبان ظلامه أن يشاركاه هذه المشاعر الكئيبة؛ فتزول كل منابع النور من معالمه السوداوية(**القمر والأفق والنجوم**)؛ إعلانا عن موت الأمل في تغيير واقع أهل الأرض؛ تأكيدا على شدة تمكن اليأس والإحباط من

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ ٢٨٩.

الشاعر؛ إعلانا بنفاذ المحبة من القلوب .

وفي نهاية القصيدة ينتقل الشاعر من سؤال الليل لغيره إلى سؤال الشاعر لليل؛ لينتقل الشاعر إلى الحديث عن شعوره بصورة هي الأقرب من المباشرة بعدما توغل في الرمزية والغموض؛ فيقول:

أيها الليل لي سؤالٌ مُمضٌّ فأتني بالجواب غير ممضّ
كلُّ طيرٍ يأوي إلى روضةٍ فيـ ـك، فهلا تدلني أين روضي؟
يا سجل الآهات، يا ليلُ، يا من لك مني الضدان: حبي وبغضي
زد غموضاً أزد شقاءً، فبعضي حالفٌ فيك أن يعذب بعضي
أنت شدوي، وأنت يا ليل شجوي، فامض عني يا ليل، أو لا تمضِ
دمعة الفجر تستدر دموعي وغموض الظلام يمنع غَمْضي(١)

يكشف الشاعر عن حقيقة شعوره بل عن أسباب نظرته إلى عالم البشر بنظرات بائسة سوداوية محبطة؛ إذ إن البشر حوله قد أفقدوه كل جميل في هذه الحياة؛ أفقدوه أعز الأحباب الذي يشعر معهم بالدفء وحضن العائلة، أفقدوه أمن الأب ورفعة العدل؛ إن عالم الشاعر أصبح كئيبا؛ لاسيما إذا أقبل الليل الذي يجتمع فيه الأهل والأحباب يتسامرون، ويتشاركون، ويتراحمون؛ فصار الليل بالنسبة للشاعر هو ذروة الوجع والحيرة والغوص في أعماق الحزن والعذاب وتذكر الأهل والأحباب؛ فينتهي كل ليل بالقلق المتتابع الذي يفقده كل أمل باسم، بعدما أفقده الإحساس بالراحة والطمأنينة والسكون كما يعهده جل البشر.

إن الشاعر من خلال معادله الموضوعي (الليل) استطاع أن يخرج كل أحاسيسه في صورة ملموسة بالغة الأسى واليأس، ينتابها الإحساس بالعتمة والسوداوية، إنها صورة لا تحمل سوى العذاب والآهات وشدة تجذر

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ ٢٩٠.

الأزمة؛ فشكلت شعورا لدى القارئ ليس فيه بصيص أمل أو لمحة سعادة أو شعور بالراحة، مع انعدام المحبة والألفة، إن الكلمات بصيغها المعيارية عاجزة عن رسمها، لذا كان المعادل الموضوعي(الليل) هو خير وسيلة وأنجحها على الإطلاق في تجسيد ملامحها لدى المتلقي بشكل واف وشديد التأثير، تبعث على الإشفاق على الشاعر ومشاركته آهاته وإحساسه الكئيب المحبط دون تأزم واستهجان.

***وقد لجأ شاعرنا إلى المعادل الموضوعي؛ للهروب من الإدانة التي غالبا ما توجّهُ إلى من يسلك طرقا بعينها، وعلى رأسها طريق نقد المرأة في فترة الستينيات من القرن الماضي، لاسيما حين التحدث عن تبرجها وسفورها في ظل ما تتمتع به من دفاع حصين من لدن أنصار العلمانية وتابعي الغرب المتحرر –على حد زعمهم–، ومن ثم يمكن القول بأن هذا النوع من المعادل هو أقرب إلى الصورة الرمزية التي تحتاج إلى كثير من الدلائل والقرائن لربط الموضوع المعادل بالموضوع الأصلي المستتر من ألفاظ وصور ومعان تربط في دلالاتها بين الموضوعين(المعادل والأصلي)، كما في قصيدة (أغصان الخمائل) على أوزان بحر (الطويل) التي يقول فيها:

دعاها إلى تجريدها منْ ثيابها شتاءٌ عبوسٌ عابثٌ بِشبابها[١]

صورة واقعية يلحظها الناس مع مجيء فصل الشتاء، الذي يجرد الأغصان من أجمل ما يزينها، وما يحمل الناظرين للاهتمام بها، والأدباء على التغني بجمالها، حين يجردها من زهورها الجميلة الساترة لها والمجملة لهيئتها، في ربط بين أصحاب الشعارات البرّاقة والأخلاق المريبة الذين يناصرون عري المرأة ويدافعون عنه بشتى المبررات المغرضة؛ لذا وصف

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ ٣٧٨.

الشاعر الشتاء بالعبوس(**شتاءٌ عبوسٌ**)؛ كرمز للعلمانيين مدعي التحرر والتنوير- على حد زعمهم-، وحدد الشاعر عمر الأغصان حين العبث بها في فترة شبابها فحسب(**عابث بشبابها**)؛ إيحاء إلى عمر الشباب للمرأة وإثارتها للشهوات؛ تلك الفترة العمرية التي تحاول الفتاة إظهار جمالها ومفاتنها، ثم إذا ما كبرن وتجعدت جلودهن وفقدن إثارتهن، وتحولت الأنظار عنهن؛ حينئذ يدعين التدين والتحشم؛ لذا قصد الشاعر ذكر (**شبابها**)؛ لأن العري فيه ليس له مبرر إلا سوء التربية وخبث النوايا لنشر الفاحشة، وهذا ما وضحه الشاعر في البيتين التاليين من خلال التعبير عن الأغصان(الفتيات)، فيقول:

فلبّت ولمْ تخْجلْ ولمْ تحْتشمْ ولمْ تخفْ بَعْد من تأنيبها أوْ عقابها

أَتَعْرَى أمام الغير؟ يا عارها إذاً ويا خزْي طيْرٍ كان يشدوا لنا بها[1]

إن رد فعل الأغصان(الفتيات) من نداءات المغرضين وأعداء الدين قد أصاب الشاعر بالصدمة الصاعقة حين تجردت المرأة مما يعتقد استحالة نزعه إلا بنزع روحها؛ لأن شاعرنا مؤمن بأن التبرج بالنسبة للمرأة يعني العار في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ وهذا أدعى إلى ردعها ومنعها من الانسياق وراء العابثين بعوراتها وكيانها؛ ومن ثَم ينتقل الشاعر من أسلوب الخبر إلى أسلوب الإنشاء من خلال الاستفهام المجازي؛ حتى يحيطنا بما ينتابه من شدة صدمته من فعلتها(**أَتَعْرَى أمام الغير؟**)؛ لكن ما أصابه من حسرة لا يمكن لأي أسلوب أن يحيط بمداها إلا أسلوب النداء بياء البعيد الممدودة بمد طويل يسمع صوته البعيد قبل القريب(**يا عارها إذاً ويا خزي طير كان يشدوا لنا بها**)؛ إنه ينادي على العار تارة، وعلى الخزي تارة

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ ٣٧٨.

أخرى؛ لعل هذا التجسيد الحيّ لهذين المعنيين وما يحملانه من بشاعة الفعل؛ يبرزان واقع هذه الفتيات العاريات، وكذلك المجتمع الذي يقبل بعريها؛ فالعار لمن تعرت، والخزي لمن يتغنى بعريها، فالنداء هنا خرج من معناه الحقيقي بطلب الاقبال إلى معنى مجازي يضاعف من شدة العار وهول الخزي بعدما صارا شخصين تجسدهما المرأة والمجتمع دون مبالاة ولا غيرة على دين أو فطرة؛ لعل قوة الأسلوب وشدة الاستهجان يدفعان المجتمع نحو حل جذري يوقف به هذا الانهيار الأخلاقي الواضح!؛ لكن الشاعر لا يملك إلا التنظير من خلال إبداء النصح والإرشاد في ثياب الجملة الإسمية؛ زيادة في التأكيد على كل أدباء وفناني المجتمع، ناصحا لهم:

عقوبتها أن يَحْبِسَ الطيرُ لحنَه إلى أن يراها في جديدِ ثيابها(١)

يختم الشاعر قصيدته بما يبرهن على شدة غيرته على مجتمعه؛ بمحاربة هذا الواقع المزري، موضحا أن علاجه لا يقتصر على معاقبة المرأة المتعرية فحسب، مشيرا إلى أن السبب الرئيس فيمن يشجعونها على التمادي في تبرجها، ويجملون ذلك في عينيها بشتى المغريات؛ لذا يجب على المجتمع أن يعالج هذا المرض بذات السلاح؛ فتصم الآذان عن سماع تلك الأصوات، وعدم المبالاة بها؛ كإدانة غير صريحة من الشاعر لبعض أفراد المجتمع من الفنانين ودورهم الملحوظ في إعلاء منازل هذه النماذج السيئة، والتغني بعريها وتبجحها.

فلاشك في أن الشاعر قد أحسن اختيار المعادل الموضوعي وما يفعله الشتاء في الأغصان وتجريده لها من جمالها الذي لا يمكن الاهتمام بها، أو التغني بهذا الجمال؛ فكان المعادل خير معين للشاعر على بلورة فكرته

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته) صـ ٣٧٨.

الأصيلة بكل أبعادها بلورة أعانته على تشريح واقع المجتمع دون أن يورط نفسه في إدانة أو مواجهة، وأعانه هذا المعادل على تقديم العلاج لهذا الواقع المشين في ظل إحكام أنصار العلمانية الخناق على كل من يتسلق سياج المرأة العارية المتحررة بالنقد أو بالنصح؛ ولا شك في أن هذا يؤكد على صقل موهبة الشاعر، وبُعد تخيله، ومعايشته للواقع، فيقول إليوت: "إن كثيرا من الشعراء من يستطيعون التعبير عن المشاعر الخاصة القوية، لكن قليلا منهم هم الذين يقدرون على جعل هذه المشاعر من الأهمية بحيث تكتسب حياة جديدة في داخل القصيدة لا في تاريخ الشاعر"(١).

*ومن أسباب الجنوح إلى الطبيعة الصامتة – أيضا– العامل الفلسفي الذي أظهر براعة شاعر البراري في التصوير الحسي العميق الذي أضفي بظلاله على فكرته؛ فكثف المشاعر الجياشة شديدة الأثر والتأثير في المخاطب؛ بتجسيد فكرته الذهنية وشعوره الداخلي في صورة محسوسة قادرة على نقل حالته نقلا محيطا بأبعاده النفسية والوجدانية قد يصعب على اللغة التقريرية رسم ملامح شعوره بالحسرة والأسى ممن يقابلون إحسان الشاعر بالجحود والنكران، وذلك من خلال تشخيص صورة(الماء) في قصيدته (غدير يتظلم) المنظومة على أوزان بحر(الخفيف التام)؛ فيقول الشاعر على لسان الماء:

ظاهرٌ باسم، وقلبي حزين، وهديري –لو تعلمون– أنينُ
اسألوا لي أشجاركم: كيف لم يتـ مر جميلي فيها؟ وكيف تخون؟(٢)

الشعور بجحود الإحسان إحساس مميت؛ دفع **(الماء)** إلى التساؤل متعجبا ممن ينعمون بإحسانه وينكرونه؛ للدلالة على أن جرمهم فاق العقل

(١) في نقد الشعر – د/ محمود الربيعي–صـ ١٥٥– دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة.
(٢) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ ٢٧٨.

والتخيل؛ خاصة أن فضله عليهم ظاهر في كل مظاهرهم؛ كاشفا عن بعض تلك الفضائل، قائلا:

أنا أنْبَتُّها، وأصْبحُ فيها زهراتٌ ضواحكٌ، وغصونُ
وثمارٌ منوّعاتٌ، وظلٌّ وارفٌ عاطف كريمٌ حنونُ(١)

لولا الماء ما استطاعت الأشجار أن تنموا وتحمل زهرها الجميل، وثمرها الطيب، وغصونها الممدودة ذات الظل الوارف؛ فبتلك الفضائل صار الشجر محمود العطاء، عزيز المكانة والقامة؛ وهذا يجعله مدينا بالفضل، ساعيا بالإحسان إلى (الماء) الذي أحسن إليه، وتحمّل مؤونة أن ينعم بهذا النعيم؛ لكن الأشجار لم تكتف بالسكوت، أو التجاهل والنسيان، بل كانت مصدر آلامه وأحزانه، فيقول الشاعر:

ثم كان الجزاءُ أن عذبتْني بلظاها –وللحديث شجونُ
فإذا ما أَنَنْتُ فيكم طويلًا فأنينـي لأنَّني مغبـونُ(٢)(٣)

ومع كل فضائل الماء على الشجر إلا أنه أصبح وقود النار التي يتعذب الماء بلظاها؛ حتى صار يغلي ويفور من شدة التعذيب؛ وما صوت الماء حينئذ إلا أنينه وحزنه لظلمه وخداعه، وذلك إشارة إلى أن الإقدام على فعل الخير لبعض الناس، إنما هو ضرب من ظلم النفس وخداع لها، وإن كان هذا يتناقض مع سمو التعاليم الإسلامية التي تحفز الإنسان نحو الإحسان إلى الآخرين بغض النظر عن رد فعلهم؛ لأنهم إن أنكروا الإحسان وقابلوه بالجحود وسوء المعاملة؛ **(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)**(٤).

لكن من ناحية الإبداع، فقد اعتلى الشاعر قمته في حسن اختيار

---

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)صـ ٢٧٨.
(٢) الضرب مكسور الوزن فلا يستقيم على (فاعلاتن) أو (فعلاتن).
(٣) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ ٢٧٨.
(٤) سورة هود ، من الآية (١١٥).

المعادل الذي جسم فكرته، وأخرج شعوره في صورة منحت تجربته مزيدا من التشويق والإثارة وعمق المعنى وجمال التمثيل، وساعدت على إيصال ما أراد إيصاله إلى المتلقي في أبيات موجزة جامعة في مشهد واضح الأبعاد والألوان والحركات، فتحولت التجربة الخاصة إلى تجربة عامة لا يقف أثرها وتأثيرها في مرحلة تاريخية محددة، وتلك هي المرحلة الموضوعية من المتعة الشعرية الأكثر نضجا كما قال (إليوت): "ففي هذه المرحلة ندرك أن القصيدة لها وجودها الخاص المستقل عنا، وأنها كانت موجودة قبل أن نقرأها، وستظل موجودة بعد ذلك"[١] .

(١) فائدة الشعر وفائدة النقد – تي سي إليوت– ترجمة الدكتور يوسف نور عوض– صـ ٣٧ – دار القلم بيروت، لبنان.

المبحث الثالث : مُعادِلات أخرى

وسع شاعر البراري من دائرة المُعادِلات الموضوعية لتجاربه الشعرية المختلفة، منوعا بين حقولها؛ تأكيدا على صقل موهبته، وسعة أفقه، وقوة ملاحظته في اختياره لمعادِلات خارجية قادرة على منح تجاربه الذاتية صورا خارجية تبوح بعواطفه وأفكاره، وترسم لها صورة مشابهة في وعي القارئ ووجدانه؛ مما يزيد تجربته جمالا وبهاء، وتعينه على الإفضاء فيها بكل أسراره وما يصاحبها من انفعالات دون تزييف أو إحراج، بل بأسلوب بديع، عميق المعاني، قوي التأثير، ومن هذه المعادلات ما يلي:

أولا : مُعادل أدبي

لقد استفاد شاعرنا من ثقافته بالأدب العربي القديم، واستطاع توظيفها في استلهامه معادلا لموضوعه الأصلي من خلال الترميز للمرأة في الزمن الحاضر بـ(ليلى)؛ حتى يُذكِّر نساء الحاضر بحقيقة أخلاق المرأة العربية القديمة التي طالما تغنى الشعراء القدماء بجمالها وبسمو أخلاقها، وعلى رأسهم (قيس بن الملوح) الذي لُقب بمجنونها؛ وقد كانت جديرة بهذه الأشعار وبتلك المحبة الصادقة، بل إن هذه الأشعار لم يكتب لها الذيوع والخلود إلا بما تضمنته من مكارم أخلاقها وحسن جمالها الذي كان يكسوه الحياء على امتداد درجاته؛ لأن العري في القديم يخرجها من دائرة الجمال مطلقا، بل يجعلها سلعة منتهكة العرض ووضِيعة الشرف لا ترقى إلى التغني بها؛ فكان الحياء والحشمة من أعظم سمات جمالها في الماضي؛ لذا عمد شاعر البراري عن العدول عن ذكر نساء عصره إلى هذا المعادل الأدبي القديم(ليلى)؛ كمقابلة معنوية يبرز من خلالها مدى الرجعية التي وصل إليه حال المرأة في زمنه الحاضر الذي انحدرت معايير الجمال فيه عند شعرائه في مفارقة أدبية مثيرة، فيقول مخاطبا بعض أعضاء (مجلس الأمة)بعد ثورة(١٩٥٢م)، وتطلع البلاد للنهضة والتقدم، على أوزان (مجزوء الكامل):

يا نائب الشرع المُفَدْ دَى "حال" ليلى" اليوم حالكْ

"ليلى" تعرت في الطريـ ـق و"ديننا" يؤذيه "ذلكْ"(١)

يستهل الشاعر قصيدته بنداء عضو من أعضاء مجلس الأمة يناديه بنائب الشرع المفدّى- تذكيرا بما يمثله، وتنبيها بما لا يصح الغفلة عنه-؛ في أمر يتنافى مع الشرع؛ في مفارقة توضح مدى انحدار الواقع؛ ليجمع الشاعر في إدانته بين المجتمع والمرأة، وإن في قوله:**(تعرت في الطريق)** تعريض بـ(ليلى الحاضر)، ولما كان المقصد من التشريع الديني هو فرض المنهج القويم بإلزام المرأة بالاحتشام؛ جاء إضافة (نائب) إلى (الشرع)؛ تأكيدا على أن نواب الشعب هم في الأصل مسئولون عن إقامة الشرع؛ لذا قصد الشاعر في البيتين التاليين ذكر أوصاف لباس المرأة طبقا للشرع، وفي هذا تذكير به، فيقول:

فاطلب لها ثوبا طويـ ـلَ الذيلِ، فِضفاضَ المسالكْ

اطلب لها "الممدود" لا الـ مقصور، واذكرني هنالكْ

واسأله لي ولها الهِدا يةَ والنجاة من المهالكْ (٢)

فالتعبير بفعل الأمر(اطلب)وتكراره؛ يؤكد على أن الأمر مهم وضروري، ولا يمكن التغاضي عنه، وهو إلزام (ليلى) الحاضر من خلال القانون بما هو ملزم شرعا؛ حتى تحصّن نفسها، وتتحصن شهوات الرجال من فتنتها؛ فينبغي توفير الأجواء الاجتماعية التي تعين المجتمع على الطهر والاستقامة، وبدون ذلك لن ينجو أحد من هذه الفتنة التي تساعد على انتشار الفاحشة في المجتمع، وقد بنى الشاعر البيت الثاني على الطباق بين ما يطلبه لليلى(الممدود) وبين ما يرفضه لها(المقصور)؛ لبيان وضوح الفارق بين نبل مقصده الذي هو غاية الشرع في موازنته بغيره، فإن الفرق

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ٥٦٨.

(٢) السابق صـ٥٦٨.

بين الممدود والمقصور كالفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، فما يخلط بينهما إلا أعمى البصر والبصيرة.

والشاعر يبدو أنه كان حريصا على دعوته؛ وذلك لأنها من القضايا الاجتماعية المهمة؛ لأن تبرج المرأة وسفورها لا يؤذيها وحدها كأنثى؛ بل يصل أذاها إلى كل من يراها، وتلك فطرة الله التي فطر عليها الرجل بإثارة شهوته بالنظر إلى مفاتن المرأة العارية، ومن ثَم لا علاج لهذه الآفة إلا بتحشم المرأة؛ ولذا يكرر نداءه على نواب مجلس الأمة، فيقول على أوزان (البسيط التام):

يا نائبَ (النهضةِ الميمون مطلعها) متى تعالجُ في مصرَ العميَّاتُ؟!
(ليلى) تسيرُ أمامي وهْيَ(عاريةٌ) والعار أنْ تتعرى (الآدميَّاتُ)
(عيسى بن مريم) ناداها أن استتري فأين منها (الثياب المَرْيَمِيَّاتُ)؟!
و(المصطفى) قال ما قال (المسيحُ) لها فأين منها (الثيابُ الفَاطِمِيّاتُ)؟!
طالبْ "بتطْويلِ أثوابِ النساءِ) وقلْ صُوني حقوقَ الأسامِي يا (سَمِيَّاتُ)[1]

يختم الشاعر قصيدته مصرحا بغايته من معادله الموضوعي؛ وهو المقابلة بين المرأة العربية في القديم والحديث؛ لذا عمد الشاعر في مناداته على نائب مجلس الأمة أن يناديه بـ(**نائب النهضة الميمون مطلعها**)؛ في إشارة إلى من كانوا ينادون بحرية المرأة في التعري بداعي النهضة والتقدم المزعوم؛ لذا ختم الشاعر بيته بما يدل على مدى العمى الذي يعيش فيه هؤلاء في مفارقة توضح أن هذا الطريق الذي يدّعونه طريق النهضة والتقدم لا يؤدي إلا إلى الهلاك والضياع بسؤاله:**(متى تعالج في مصر العميَّاتُ؟)** باستفهام مجازي يحمل معنى التعجب الذي يوضح سببه البيت الذي يليه؛ باستحالة ارتقاء المجتمع و(ليلى) تعري جسدها وتسير أمامه؛ فهذا لا يمكن

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ٥٧٠.

اعتباره إلا عارا ومفسدة دينية وخلقية.

والشاعر في نهاية قصيدته يستدعي ما يدعم موقفه ويؤكد صحة قوله باستدعاء الأحكام الشرعية في هذا الشأن من النصوص الدينية التي تمثل النسيج الوطني للمجتمع المصري (مسيحي وإسلامي)، فهما يتفقان على التستر والتحشم للنساء، ولهن في (مريم العذراء وفاطمة الزهراء) خير قدوة إن كن يردن الاقتداء بالطاهرات الشريفات؛ ليعبر الشاعر عن مدى تعجبه من مبررات هؤلاء بأسلوب استفهامي يحمّله معنى التعجب في قوله:(**فأين منها (الثياب المَرْيَمِيَّاتُ)؟!، فأين منها (الثيابُ الفَاطِمِيّاتُ)؟!**؛ لذا يختم الشاعر قصيدته بطلبه الصريح المباشر كاشفا عن مراده بـ**(ليلى)**: (**طالب "بتطويلِ أثوابِ النساءِ**)، موضحا حينئذ طلبه بصورة كاشفة مباشرة، بأنه يجب على الدولة متمثلة في نواب مجلس الأمة أن يلزموا كل النساء المصريات بالتحشم والتستر؛ حفاظا على سمو المرأة التي هي أم وزوجة وقدوة وامتداد لأسماء اعتلت في سماء الدين والعلم والأدب بحسن ما قدمت، وليس بما تعرت وتجردت من حيائها ودينها وقيم مجتمعها.

والشاعر في هذه القصيدة قد اعتمد في بنائها على نظام المقطوعات، غير ملتزم بوزن واحد لكل المقطوعات؛ ولعل السبب في ذلك هو أن هذه القصيدة هي مجموعة من مقاطع خاطب الشاعر بكل مقطوعة نائبا بعينه؛ لذا نظم الشاعر قصيدته على مراحل مختلفة وأزمنة متباعدة؛ فلم يلتزم ذات الوزن للمقطوعات السابقة، إلا أنها يجمعها موضوع واحد.

ثانيا : مُعادِل اصطناعي

هذا المعادل (الاصطناعي) الذي يقصد به ما كان **مصنوعًا**، أي: غير طبيعيّ[١]؛ ليستثمر شاعر البراري هذا المصنوع؛ ليطرح من خلاله فكرته الأصيلة، فيقول (إليوت): " كلما كان الشاعر ناضجا كلما كان قادرا على الانفصال عن شخصيته الخاصة في حالة الإبداع الفني، بحيث يكون له شخصيتان، شخصية تحس وتجرب وتكون المادة الأولية للشعر، ثم شخصية أخرى تحول هذه المادة إلى قالب فني"[٢]؛ ويمثل شاعر البراري الشخصيتين، الأولى في استقصائه حال **(مركب)** محطم قد استغنى الناس عن خدماته حتى صار مهملا لا يبالي أحد بوجوده، ولا يشغل باله بإصلاحه؛ فاستقصى الشاعر حال هذا المركب المطابق لحاله، متخذا منه معادلا موضوعيا لما يسيطر على فكره ووجدانه من حالة نفسية مضطربة صنعها الأقربون منه ببشاعة جحودهم ونكرانهم لإحسانه إليهم، ثم انطلقت شخصيته الأخرى تجسد حالته(فكرا وشعورا) في تجربة شعرية غنية بالإيحاء والرمزية والعمومية، فيقول شاعر البراري على لسان هذا المركب، على أنغام بحر(البسيط التام) :

بالأمس كنْتُ أشقُّ البحْرَ قارئةُ سطور موْجٍ لها في الدهْر تخْليدُ
أقلُّ خِلًّا إلى خلٍّ فيحمدَ لي سعيي ألا إن سعي الخير محمودُ
تخالني وجبالُ الموجِ تلطمني عينًا تنازعُها نومٌ وتسْهيدُ
وكمْ أضأْتُ ظلامَ البحرِ جاريةً كما يُضيء ظلامَ القلب توحيدُ

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة- د. أحمد مختار عبدالحميد وآخرون- باب (الصاد)- الجذر(ص، ن، ع).

(٢) في نقد الشعر – د/ محمود الربيعي- صـ ١٥٥.

وكم حفظتُ اتزاني واتبعْتُ هُدىً والبحْر مضطربٌ، والجو عِرْبِيدُ(١)

إن أبرز ما يدل على الإنسان المُحِب هو سعة احتوائه لمن يحبهم بعطائه مادام قادرا على إعطائهم، ورفع الشقاء عن كواهلهم؛ ومن ثمّ فهو لا يبالي بالغد حينما يفقد القدرة على العطاء؛ لأنه مؤمن بأن تضحياته محفورة في صدور من ضحى من أجلهم كما كان لسان حاله مع سالفيه، معان عقلية ومشاعر وجدانية جسدهما الشاعر في مشهد تمثيلي من خلال هذا المركب الذي لم يعرف سوى حمل الآخرين ونقل أمتعتهم، والعمل على إذابة أوجاعهم، وقد أبدع الشاعر في تشكيل صوره الجزئية التي تبرز مدى عطاء هذا المركب وخوضه الأخطار والصعاب بالأمس وحده من أجل وصوله بمن يحملهم إلى مبتغاهم؛ فلم يرْهبْه عظم ارتفاع الأمواج وشدة ارتطامها بجسده؛ فتَحمَّلَ الأوجاع وحده، وشق ظلمات البحر دون كلل ولا ملل، مكتفيا بسماع كلمات حمد منهم تشعره بطيب ما يقدمه لهم، وتحفزه نحو العطاء أكثر وأكثر في سبيلهم؛ وفي كل صورة جزئية استعارها الشاعر للمركب حرص أن تدل على لوازم الإنسان، نحو: **(أشق البحر قارئة سطور موج لها في الدهر تخليدُ)، (تخالني عينا تنازعها نوم وتسهيدُ وجبال البحر تلطمني)، (أضأت ظلام البحر كما يضيء ظلامَ القلب توحيدُ)، (وكم حفظتُ اتزاني واتبعت هُدىً في ظل اضطراب البحر وعربدة الجو)**؛ صور تحمل في دلالاتها قوة التحمل للصعاب والصبر على المشاق من أجل أن يحفظ الإنسان أمن أحبابه، ويصنع السعادة في أعينهم؛ للإيحاء بما يقصده من وراء هذا المعادل الاصطناعي؛ وإن أوضح القرائن دلالة على مقصده نظْمُ الشاعر لقصيدته على لسان المركب وكأنه يتحدث بلسان حاله.

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ١٧١.

ثم يقابل الشاعر هذا الأمس المنصرم باليوم الحاضر؛ فيقول على لسان المركب -أيضا-:

واليوم حطَّمني الدّهرُ، ولا عجبٌ كلٌّ له, أجلٌ في الدّهر محْدودُ

كأنّني وأنا فوْق الْقرى قطـع قلب اليتيم إذا ما أقبل العيدُ(١)

يقابل الشاعر بين أمس المركب وحاضره معتمدا في تشكيل مقابلته على أسلوب المفارقة؛ مما يزيد الهوّة بين الحالين عمقا وبعدا، ويكثف شعور التعجب والأسى في نفس القارئ كما في نفسه؛ فبالأمس كان يتهافت الآخرون عليه؛ ويتسابقون في نيل وده؛ ليحظون بعطائه؛ ولما جاء اليوم الذي فقد فيه القدرة على العطاء، يوم رد الجميل إليه ممن أحسن إليهم؛ إذ تبدل القرب بعدا، وسقطت من قلوبهم، وكأن الأمس ممحيٌ من ذاكرتهم، وقد أحسن الشاعر في تشكيل صورته التي تجسد حال من مر بتلك التجربة في آخر بيت ختم به قصيدته؛ ليسدل الستار بهذه الصورة التي تصور هذا المركب وهو كائن على الماء مهملا متروكا كحال قلب اليتيم الذي يأتي عليه العيد ليجدد أحزانه ويذكره بالوحدة وفقد الأحباب ودفء العائلة؛ فيصير العيد مدعاة لمضاعفة آلامه في مفارقة ثرية تضاعف ألوان الأسى والبؤس في صورة الشاعر وتجسد حاله.

فما أصعب الإحساس بالجحود والإهمال حين العوز إلى من أحسنت إليهم؛ إنه شعور خفي لكنه قاتل يدل على انعدام الإنسانية وتجرد قلوبهم من الرحمة، ويصيبك بشدة الندم وعميق التحسر على تفانيك في سبيل من لم يستحق؛ مما يمكن القول بأن المعادل قد لعب دورا محوريا في تجربة الشاعر في بلورة ما هو خفي فكرا وشعورا في مشهد محسوس بشتى

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)- صـ١٧١.

الحواس، واضح الأثر، قوي التأثير في نفس المتلقي أضعاف أضعاف ما قد يحدثه التعبير المباشر والبيان المعنوي .

ثالثا: مُعادل اجتماعي

إن شاعرنا حين أراد التعبير عن مدى اعتزازه بفنه الشعري، وعن عشقه لكل قصيدة تولد من رحم موهبته؛ عدل من الحديث عن قصيدته الشعرية إلى الحديث عن المرأة؛ لأنها أظهر عشقا، وأشد حرارة، وأقرب تصويرا إلى الخيال؛ لإحاطة كل المخاطبين بمقاصد الشاعر وشعوره، لاسيما إذا كان المتلقي ممن لا يمتلكون موهبة الشعر، ولا يحيطون بإحساس الشاعر حين يعلن عن ميلاد قصيدة له، فيقول شاعر البراري في قصيدته التي أسماها **(أحببتها)** بصيغة الماضي؛ ليدل على شدة تجذر محبتها في أضلعه، فينشدها على أوتار بحر(مجزوء الرجز)، الخفيف على السمع كالغناء:

أحْببْتها ضئيلةً نموذجًا من أملي
رقيقةً رائقةً كقطعةٍ من غزلي
أكادُ أن أشربها باللحظِ، أو بالقبلِ[1]

ينتقي الشاعر صفات قلما تجتمع في امرأة بعينها؛ فيجمع بين صفات الابنة والمرأة المحبوبة معا؛ بما يجعلها فريدة في وصفها، وكأنها امرأة خلقت كما يشاء الشاعر؛ لذا يعشق الشاعر كل مرحلة من مراحل عمرها؛ لأنها تتشكل من أسمى أمانيه، ورقة أغانيه، وكأنها قطعة غزلية نسجها بيديه؛ تأكيدا على مدى انبهاره بها، ورضاه عن صورتها التي استوت عليها؛ حيث جمعت بين كل ما يشرح صدره ويقر عينيه؛ فأصبحت تحوي الجمال الذي فاق السحر الذي لا تتحمل العيون فتنته؛ فتبتلى بالسهر والأرق، ويخاصم

(١) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ٦٠٣.

النوم جفنها، فيقول:

عيونها تفتن لا بالكُحلِ، بل بالكَحَلِ
وخدّها الروض الذي أطيب لو أتيح لي
وفمّها لضيقه ضاقتْ لديْه سُبُلِي[١]

بعدما تشكلت ملامحها واستوت؛ تداعت جوارح الشاعر تتغزل في جمالها، فالعين فاقت السحر، وجمال الخدود أشبه بالورود الحمر التي تشرح الصدر، وما أروع فمها الذي لضيقه حير قلب الشاعر وعقله في التمثيل له؛ فاستطاع الشاعر أن يرسم جمال محبوبته الأصلية الذي فاق كل جمال أنثوي يعجز التعبير المباشر عن الإحاطة بمواصفاته؛ لذا عادل الشاعر موضوعه الأصلي؛ فساعده في الوصول بالمتلقي إلى الإحاطة بشعوره وقوة عشقه لقصيدته، وكعادة شاعر البراري يختم قصيدته بما يربط به بين موضوعه الأصلي ومعادله، فيقول:

عقيقُهُ ضُمَّ على دُرٍّ كريمِ النُّزُلِ
احتلتُ حتّى صغتُه شعرًا، وصحّتْ حيلي[٢]

لا شك في أن هذا المُعادل قد أظهر للمتلقي مكانة القصيدة ومنزلتها في نفس الشاعر؛ فإنها الأقرب إلى نفسه، ويكنُّ لها من المحبة والقرب كالمحبوبة، وفلذة الكبد كالابنة؛ فيعلم المخاطب أن الشاعر وقصيدته امتداد لجسد واحد، فهي أقرب ما يكون لنفسه، وتوأم روحه، من يسئ إليها يؤذيه، ومن يثني عليها يسره؛ وذلك بفضل حسن اختياره للمعادل الموضوعي الذي عزز فكرته، وكثف شعوره .

(١) أراد الشاعر : أطيب فيه، لكن لم يسعفه الوزن(تعليق المعد للنشر). الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ٦٠٣.

(٢) الديوان الكبير لشاعر البراري (محمد السيد شحاته)– صـ٦٠٣.

الخـاتـمــة

وفي الختام يمكن أن نجني ثمار هذه الدراسة في التالي:

١-كان سجن والد الشاعر ذا أثر كبير في ميوله نحو العزلة والاغتراب النفسي اللذين ظهر أثرهما في طرح شتى تجاربه الشعرية بواسطة معادل موضوعي يعبر عن أفكاره وأحاسيسه تعبيرا غير مباشر.

٢- نجح شاعر البراري في إيجاد مُعادِلات موضوعية متنوعة المصادر؛ تبعا لأبعاد تجربته الشعورية؛ مما أحدث تفاعلا مع تجربته الشعرية بعد بلورة فكرته وتجسيم شعوره الداخليين في وعاء خارجي أعان القارئ على التعايش مع تجربته، والإحاطة بكافة جوانبها الموضوعية والوجدانية.

٣- المعادل الموضوعي قد يلتقي مع الاستعارة التمثيلية أو التشبيه التمثيلي أو الرمز أو استدعاء التراث من حيث الإيحاء، وتجسيد الأفكار، وتجسيم المشاعر، والتماثل الدلالي؛ لكن ينبغي أن يتسم المعادل الموضوعي بالإحاطة والشمول لفكرة الشاعر وشعوره في مشهد خارجي يحيط بكافة عوالم الشاعر الداخلية على امتداد تجربته الشعرية دون انقطاع- مع مراعاة تفاوت نظرة النقاد للمعادل الموضوعي حسب اتجاهاتهم الفنية-؛ لأنه مزيج من الصور البلاغية والرمزية والوسائل الأسلوبية والدلالات الإيحائية.

٤- حرص شاعر البراري على طرح تجاربه الذاتية المتعلقة بسجن والده في ثياب المُعادل ذي الصبغة الدينية؛ حتى يضفي على فكرته من سحائب المصداقية والموضوعية والقدسية الدينية؛ مما يعكس مدى المحبة الفياضة لوالده، والمنزلة العظيمة التي ينزلها في نفسه على الرغم من سجنه وابتعاده عنه لسنوات عديدة.

٥- إن الشعر العمودي الأصيل قادر على حمل مختلف الأفكار، واستيعاب كافة المشاعر، وتبليغ شتى المعاني، ويتسع لكل الأساليب المعاصرة والمستحدثة في إبداع يعلو على كل فن سام، وأشعار الدراسة خير مثال؛ لكونها جمعت بين الأساليب المستحدثة، وجلال الموضوع وبكارته، وشرف المعاني وجديتها، وفصاحة اللفظ ومعاصرته، واستقامة التراكيب وسلاستها، وجمال الصورة وعمقها، ويزين كل ذلك موسيقى الوزن الخليلي بقيوده الصارمة وحسن جرسه، وسحر القافية الأصيلة الموحدة أو المرسلة.

٦- التوصية بالاهتمام بالدراسات الأسلوبية المستحدثة في إطار يخدم الأدب وفنونه المختلفة بما يثري المكتبة العربية، ويرتقي بالنقد الأدبي، ويوسع من دائرة أدواته الفاعلة.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً- القرآن الكريم.

ثانيا- المصادر والمراجع:-

١- (تي. سي) إليوت الشاعر الناقد – ماثيشن – ترجمة/ إحسان عباس- بيروت – ط١- ١٩٦٥.

٢- الديوان الكبير لشاعر البراري(محمد السيد شحاته) – جمعت مادته الشعرية ابنة الشاعر (توبة محمد السيد شحاتة)- أعده للنشر وقدم له الدكتور اسماعيل الصيفي- منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٦م.

٣- صحيح مسلم- للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري- تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي- دار الحديث بالقاهرة -ط٢- ١١٤١هـ - ١٩٩١م.

٤- قضايا معاصرة في الأدب والنقد – الدكتور محمد هلال غنيمي- دار نهضة مصر للطباعة والنشر-القاهرة .

٥- فائدة الشعر وفائدة النقد – تي سي إليوت- ترجمة الدكتور يوسف نور عوض – مطبعة دار القلم بيروت، لبنان- ط١، ١٩٨٧م.

٦- في نقد الشعر – د/ محمود الربيعي- دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة.

٧- "محاضرات في الفن"- غوتنبرغ دوت أورغ - - ترجمة ونشر موقع (واي باك مشين) -منشور بتاريخ ٢٤ سبتمبر ٢٠١٥.

٨- مختارات من النقد الأدبي -رشاد رشدي- مطبعة العلوم -مكتبة الأنجلو المصرية.

٩- مختارات نادرة وقصائد لم تنشر لشاعر البراري(محمد السيد شحاته)- جمع المادة الشعرية ابنة الشاعر (توبة محمد السيد شحاته)- تقديم وإعداد الأستاذ الدكتور/ محمد مصطفى أبوشوارب- منشورات مؤسسة جائزة

عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري- الكويت ٢٠١٣.
١٠- معجم المصطلحات الأدبية- إبراهيم فتحي -التعاضدية العمالية للطباعة والنشر- صفاقس الجمهورية التونسية)-ط١-١٩٨٦م.
ثالثا- المجلات والحوليات .
١- مقال بعنوان: (ثقافة النقد الموضوعي) - بقلم /غسان كامل ونوس- صحيفة الثورة الإلكترونية- نشر بتاريخ ١٦ مارس ٢٠٢١م.
٢- بحث بعنوان:(مصطلح المعادل الموضوعي ، قراءة ثانية)- أ.د/ فتحي (محمد رفيق)أبو مراد، أ.د/ناصر حسن عيد يعقوب- مجلة جامعة الوصل (الإمارات)- العدد الثاني والستون، يونيو ٢٠٢١م.
٣- بحث بعنوان : المعادل الموضوعي في شعرنا العربي بين الإبداع والتقليد- د. حمدي فاروق صالح الشيخ- المجلة العلمية لكلية التربية النوعية جامعة المنوفية -عدد عام ٢٠٢١م- الجزء الأول.
٤- مقال بعنوان : المعادل الموضوعي في مسرح شكسبير- بقلم/ هبة الله إبراهيم محمد - مجلة تراث الاماراتية - العدد ١٩٨ إبريل ٢٠١٦.
٥- بحث بعنوان: المعادل الموضوعي في النقد الأنجلو -أمريكي الجديد- دراسة في المصطلح والمفهوم والمرجعيات- أ. أحسن دواس- - مجلة جامعة الأخوة منتوري قسنطينة، الجزائر- العدد سبتمبر ٢٠١٦م.
٦- بحث بعنوان: المعادل الموضوعي، مفاهيم وتطبيق- سميرة عمار الرباعي- حولية كلية الآداب الجميل، جامعة صبراتة، ليبيا- العدد التاسع يوليو ٢٠٢٠م.
٧- رسالة ماجستير بعنوان: مظاهر الطبيعة في شعر محمد السيد شحاته(شاعر البراري) دراسة تحليلية نقدية - للباحث / غانم عبدالنبي غانم- جامعة الأزهر الشريف - ٢٠١٩م.

رابعا- المعاجم :

١- معجم اللغة العربية المعاصرة - د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر، وآخرون- عالم الكتب، القاهرة -الطبعة الأولى- ٢٠٠٨ م.

٢- لسان العرب - ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري)- دار المعارف-القاهرة ١٩٨٤م.

Second- Sources and references:-

1- (T.C.) Eliot, The Poet and Critic - Mathischen - Translated by Ihsan Abbas - Beirut - 1st ed. - 1965.

2- The Great Diwan of the Poet of the Prairies (Muhammad al-Sayyid Shahata) - The poetic material was collected by the poet's daughter (Tawbah Muhammad al-Sayyid Shahata) - Prepared for publication and introduced by Dr. Ismail al-Saifi - Dhat al-Salasil Publications, Kuwait, 1986.

3- Sahih Muslim - by Imam Abu al-Husayn Muslim ibn al-Hajjaj al-Qushayri al-Naysaburi(d. 261 AH)- Edited by Muhammad Fuad Abdul-Baqi - Dar al-Hadith, Cairo - 2nd ed. - 1141 AH - 1991 AD.

4- Contemporary Issues in Literature and Criticism - Dr. Muhammad Hilal Ghanimi - Dar Nahdet Misr for Printing and Publishing - Cairo.

5- The Benefit of Poetry and the Benefit of Criticism - T. C. Eliot - Translated by Dr. Youssef Nour Awad - Dar al-Qalam Press, Beirut, Lebanon - 1st ed., 1987 AD.

6- On the Criticism of Poetry - Dr. Mahmoud al-Rubai'i - Dar Gharib for Printing and Publishing - Cairo.

7- "Lectures on Art" - Gutenberg.org - Translated and published by the Wayback Machine - Published on September 24, 2015.

8- Selections from Literary Criticism - Rashad Rushdi - Al-Ulum Press - Anglo-Egyptian Library.

9- Rare Selections and Unpublished Poems by the Poet of the Desert (Mohamed El Sayed Shehata) - Collected Poetry by the Poet's Daughter (Tawbah Mohamed El Sayed Shehata) - Presented and Prepared by Professor Dr. Mohamed Mustafa Abu Shawareb - Publications of the Abdulaziz Saud Al-Babtain Award for Poetic Creativity Foundation - Kuwait 2013.

10- Dictionary of Literary Terms - Ibrahim Fathi - Workers' Solidarity for Printing and Publishing - Sfax, Republic of Tunisia - 1st ed. - 1986 AD.

Third: Magazines and annuals:-

1- An article entitled: (The Culture of Objective Criticism) - by Ghassan Kamel Wannous - Al-Thawra Electronic Newspaper - published on March 16, 2021.

2- A research paper entitled: (The Term "Objective Equivalent," A Second Reading) - Prof. Dr. Fathi (Muhammad Rafiq) Abu Murad, Prof. Dr. Nasser Hassan Eid Yaqoub - Al Wasl University Journal (UAE) - Issue 62, June 2021.

3- A research paper entitled: "The Objective Equivalent in

Our Arabic Poetry: Between Creativity and Imitation" - Dr. Hamdi Farouk Saleh Al-Sheikh - Scientific Journal of the Faculty of Specific Education, Menoufia University - 2021 Issue - Part One.

4- An article entitled: "The Objective Equivalent in Shakespeare's Theater" - by Hebatallah Ibrahim Muhammad - Emirati Heritage Magazine - Issue 198, April 2016.

5- A study titled: "The Objective Equivalent in New Anglo-American Criticism: A Study of Terminology, Concept, and References" by Ahsan Dawas - Journal of the University of Constantine, Algeria - September 2016 issue.

6- A study titled: "The Objective Equivalent: Concepts and Application" by Samira Ammar Al-Rubai - Annals of the Faculty of Fine Arts, University of Sabratha, Libya - Issue No. 9, July 2020.

7- Master's thesis entitled: Aspects of Nature in the Poetry of Muhammad al-Sayyid Shahata (Poet of the Prairies) An Analytical Critical Study - by Researcher / Ghanem Abdel Nabi Ghanem - Al-Azhar University - 2019 AD.

Fourth: Dictionaries:-

1- Dictionary of Contemporary Arabic - Dr. Ahmed Mukhtar Abdel Hamid Omar and others - Alam Al-Kutub, Cairo - First Edition - 2008.

2- Lisan Al-Arab - Ibn Manzur (Jamal Al-Din Muhammad bin Makram Al-Ansari) - Dar Al-Maaref - Cairo 1984.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مـقـدمــة	٩٣٥
الـتـمـهـيـد	٩٣٧
المبحث الأول : المعادل الديني	٩٤٢
المبحث الثاني : مُعادل من الطبيعة	٩٥٦
المبحث الثالث : مُعادِلات أخرى	٩٧٠
الـخـاتـمــة	٩٧٩
فهرس المصادر والمراجـع	٩٨١
فهرس الموضوعات	٩٨٦